

من أعلام الأساتذة المدرّسين بتلمسان (في الخمسة الهجرية الثانية)

أ.د محمد مرتاض

جامعة تلمسان

ينطلق تركيزنا على " تلمسان " وحدها من عدّة دواعٍ موضوعيّة وذاتيّة هي:

1 . إنّ تناول كلّ الأساتذة المدرّسين في المغرب الأوسط ، في شموليّة وتفصيل، أمر لا يمكن تحقيقه بسبب النقص الفادح في المرجعيّة من وجهة، وبسبب ما يتطلبه مثل هذا العمل من فسحة في الوقت، وهذا الأمر لا يتأتّى بسهولة من وجهة أخرى .

2 . لا بدّ من الاعتراف والجهر بالقول إنّ عملاً مثل هذا يجب أن تتوفر له الظروف الماديّة والعوامل البشريّة حتّى يتسنى له أن يقف على سوقه .

3 . إنّ تحديد فضاء الموضوع وتخصيصه بتلمسان فقط، نراه أصلح منهجاً، وأكثر جداءً.

4 . الإيمان بقيمة هذه المدينة الحضاريّة وبوفرة مفكرها وغنى ثقافتها، وبروز دورها في محافل ومجالات مختلفة.

5 . إسهام هذه المدينة في بلورة الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الغرب الإسلامي من فاس إلى الأندلس .

6 . الرّحلات المتعدّدة لمفكرها عبر أقطار المغرب العربيّ أو الغرب الإسلاميّ كلّ، حيث كانوا خير سفراء لبلدهم، وصلة وصل لمتّ شمل هذه الأقطار بعضها ببعض، ووجدت بين علمائها ومدرّسيها، فأذابت المذاهب المتناحرة، وأبادت الفرقة، وزرعت بذور الألفة .

7 . لقد قطّنت هذه المدينة أسرّ توارثت العلم ولداً عن والد، وحفيداً عن جدّ من أمثال المقرّبين، والمرازمة، والعُقبانيّين ...

وعاملٌ أخير، يتمثّل في إشراقي على فرقة بحث تابعة لقسم اللّغة العربيّة وآدابها عن " أعلام تلمسان " منذ سنة 1994م، حيث أنجزنا جزءاً منه ، ولا يزال قسم كبير في الانتظار. وهنا أفتح قوساً لأعرب عن تضايقي من عدم وجود علاقة بيننا وبين بلديّات تلمسان وولايتها، لأنّ الأمر لا يخصّنا وحدنا، وقد يكون ذلك ناتجاً عن عدم وجود علاقة وثيقة بين الجامعة والمحيط الخارجي. ولا بدّ من التأكيد تارة أخرى بأنّ الأعلام المدرّسين بالمغرب الأوسط لا يمكن لأحد أن يوقّهم حقّهم، ويجمع شتاتهم، ليس عجزاً ولا تخاذلاً، ولكن سُدراً وشدّها إزاء تعدّدهم وتوزّع أسمائهم على مختلف المصادر والمراجع التي ما يبرح معظمها مخطوطاً

مُخْتَفِياً عند أسرة ما، أو مركز ثقافيّ قد لا يُعار له أدنى اهتمام، وقد " يوجد في النّهر ما لا يوجد في البحر "

وأعود إلى الموضوع فأقول: إنّ تأصيل الأدب الجزائريّ القديم، والبحث في مُنَحَزات العلماء ليس بالأمر الهين، ولذلك فإنّ ما أقدمه في هذا المضمّر، ما هو إلّا جهد المقلّ؛ لا يزعم لنفسه الإحاطة، ولا يدّعي الشموليّة .

والتزاماً بالمنهجية، فإنّي أحاول تحديد المحاور التي ستتناولها هذه المداخلة؛ والتي تنطلق من تحديد المراكز الثقافية التي كانت محجّاً للعلماء المدرّسين، مع إبراز أهمّ المدارس التي كانت في تلمسان، ونختم بعد ذلك بتناول تراجم لأعلام ذاعت شهرتهم في التدريس، وقدموا لأجيالهم عُصارة علمهم، وثمرة جهودهم. **أولاً : المراكز الثقافية:**

لقد عرفت الجزائر عبر جهااتها المختلفة مراكز ثقافية (في الشرق والغرب والوسط) يعسر الإلمام بها، أو حضرها في هذه العجالة إمّا بسبب نُذرة المرجعية، وإمّا غيابها بالنسبة لنا. ولذلك سنقف عند المراكز الأولى التي اشتهرت بعلمائها ومدرّسيها في الخمسة الهجرية الثانية، وسنقف بالتحديد عند مدارس بجاية (عاصمة الحمّاديين يومئذ) وتيهرت بصفتها العاصمة الأولى للجزائر بعد د الفتح الإسلامي، ثمّ تلمسان التي ظلّت لقرون عاصمة الزيانيين، ووقفنا عند أهمّ العواصم الحضارية للجزائر نريد من وراءه إثبات قول ابن خلدون الذي يقرّر فيه أنّ العلوم تكثّر حيث يكثر العمران ⁽¹⁾ .

ولا بدّ من التّوضيح، بأنّ أهمّ المراكز الثقافية في المغرب الأوسط لم تنحصر فيما سنتناوله، وإمّا قد كانت هناك مراكز ثقافية أخرى قائمة بذاتها في كلّ من الجزائر العاصمة، وتّنس، وقسنطينة، وهي في مجملتها مراكز حضارية أنجبت أعلاماً نوابغ أشاعوا النور في مختلف الأرجاء ⁽²⁾، وطفّت أسماؤهم فوق سماء الشّهرة، فأفشت سرّ رحيقها، وبعثت بأريج فكرها إلى كلّ حذب وصوب .

1. تيهرت :

أسّس الرّسّميّون هذه المملكة في وقت مبكّر؛ أيّ سنة 144 هـ ، فهي المدينة الأولى، أو العاصمة الأولى للجزائر بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ غني فيها مؤسّسوها بكلّ المقومات الحضارية التي لا بدّ أن تتوفّر في دولة ما، أو أمة ما؛ ومن هذه المقومات محور العلوم والآداب التي كانت أهمّ مميّزات هذه الدّولة مثلما نصّ عليه الدّارسون والمؤرّخون؛ منهم مبارك الميلي الذي قال: " غني الرّسّميّون بنقل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الإسلامية، ولكنّ عنايتهم بالعلوم الدّينية أشدّ، فكانوا أئمة في العلم، كما كانوا أئمة في السياسة يتدارسون التفسير والحديث والفقه والكلام والأخبار والأشعار والعلوم الرياضيّة، واشتهروا بالتّنجيم والرّمل " ⁽³⁾

ومّا زاد في بعث نشاط خلايا الحركة الثقافية وتطويرها ، هو أنّ عبد الرحمن بن رستم نفسه كان مفسراً وتمكّن من تأليف كتاب في هذا الفنّ، وأنّ ابنه عبد الوهّاب كان نابغة زمانه في العلوم الدينيّة، على حين ترك أفلح بن عبد الوهّاب بصمات جليّة على الشعر والأرجاز والأدب بعامة .

وكان من أئمة الرّسّميّين من انتصبوا للتّدرّيس بالمساجد العامّة، إلّا أنّ ما لا ينساه التاريخ، هو أنّ حكّام تيهّرت استطاعوا أن يُنشئوا مكتبة سمّوها (المعصومة) حوت آلافاً مؤلّفة من المجلّدات في مختلف فنون العلم، وصنوف المعارف .

وما نوّكده أخيراً هو أنّ هذه المدينة عرفت عشرات المدرّسين وأماكن تدرّس . وإن لم تعرف تسمية مدرسة . فقد كانت حلّق العلم قائمة، وكان التنافس بين المثقّفين على أشدّه ممّا أثّرت الحركة الثقافيّة، وزادها رونقاً وإشراقاً .

2 . بجاية :

لقد عرفت هذه المدينة ازدهاراً وحضارة عظيمين، منذ أن أصبحت عاصمة الحمّاديين، ولاسيّما في عهد المنصور الحمّاديّ (481 . 498 هـ) حيث كانت تضمّ اثنين وسبعين مسجداً، وظلّ ازدهارها يتألّق في اطراد إلى أن بلغ أوجّه في أثناء القرنين السّادس والسّابع الهجريّين ، حيث غدت تُعجّ بترسّانة من علماء الفقه والكلام والتّصوّف والفكر والأدب وعلوم اللّغة . واستطاعت في قمة نشاطها واكتمال مُموّها أن تنافس (مرّاكش) في المجالين : العلميّ والأدبيّ ، مثلما ينصّ عليه العُبريني (4) .

3 . تلمسان :

إنّ هذه المدينة غنيّة عن الذّكر والوقوف عند مآثرها، ولولا أنّنا لا نكتب لزماننا ولا لمكاننا فقط، لما وقفنا عندها، لأنّنا نحيا فيها ومقتنعون بأنّ كلّ موطن من مواطنها، أو حيّ من أحيائها؛ إلّا وهو مزّدان بضريح عالم تحرّير، أو فقيه أريب، أو شاعر مُفلّق؛ يصفها يحيى بن خلدون فيقول: « بما قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، والصّروح الشّاهقة، والبساتين الرّائقة، ممّا زُخرفت عروشهن ومُتمّت عُروسه، وتناسبت أطواله وعُروضه، فأزرى بالخوّزق، وأخجل الرّصافة، وعبث بالسّدير . وتحفّ بخارجها الخمائل الألفاف، والأدواح الأشّبة، والحدائق الغُلب، بما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، من الفواكه والرّمّان، والتّين والزّيّتون . وتنصبّ إليها من علّ أنهار من ماء غير آسنٍ تتجاذبه أيدي المذانب والأسراب المكفورة (5)

خلالها ، ثمّ ترسله بالمساجد والمدارس والسّقايات، فالقصور وعليّة الدّور والحمامات ... فهي التي سحّرت الأبواب رُواء، وأصبّت (6) النّهي جمالاً ... (7)

إنّ الوصف الذي خُصّص به تلمسان على عهد الزياتيين حين وصلت إلى أعلى قيم الجمال، وبلغت ذرى الجحد والمثال، بل ما تبرح بها معظم الأوصاف التي أضفاها عليها يحيى بن خلدون ! .
 أمّا شقيقه العالم الاجتماعيّ (عبد الرحمن) فقد تحدّث عنها على عهد الموحدّين قبل أن يزكي وصف أخيه فقال: « ولم يزل عمران تلمسان يتزايد ، وخطّتها تتسع . الصُّروحُ بها بالآجر والفُهر تُعلّى وتُشاد . أيّ على عهد الموحدّين . إلى أن نزلها آل زيان واتَّخذوها داراً لملكهم وكرسيّاً لسلطانهم، فاختطّوا بها القصور المونقة، والمنازل الجميلة، واغتسوا الرّياض والبساتين، وأجرّوا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها النّاس من القاصية، ونفقت بها أسواق العلوم والصّنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام . » (8)

هذه المدينة التي ظلّت مزدهرة تحت ظلّ الزياتيين (633 . 957 هـ) تُضاهي الأمصار الإسلاميّة لأكثر من ثلاثة قرون؛ لا بدّ أن تجتمع فيها كلّ آيات الحسن، وسمات الجمال؛ وينبت عبر بيوتاتها وأزقتها العلماء والمفكّرون ... ومما لا يتجادل فيه اثنان، أنّ كلّ من يطّلع على هذا الإرث الهائل من الفكر والثّقافة في هذه المدينة الشامخة لا يملك نفسه من الوقوف مُعْتَبِراً؛ بل مفتخراً بما أنجبته هذه البقعة التي كلّما خطونا خُطوات هنا وهناك؛ إلّا ووجّب علينا أن نرتعش ونتأثّر، لأنّنا قد نكون ننقل في الموطن الذي وطئه يوماً ما ابن خميس، وابن خلدون، وابن مرزوق، والمقري، والعقباني، وابن زكري، والتّنسي، والمصمودي، وابن مريم، والقائمة طويلة ...

ثانياً: المدارس: (*)

لعلّ أوّل سؤال يفرض نفسه، هو: متى عرف المغرب الأوسط أولى مدرسة؟ ومثل هذا السؤال ليس أسهل ولا أيسر من إلقائه، ولكنّ الجواب عنه أعقد وأعسر، لأنّ التّسرّع قد يوقع صاحبه في إشكالات مختلفة، وفرضيات متباينة، ولاسيّما أنّ معظم المؤرّخين تجاهلوا هذه القضية فلم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث فيها. ومن هذه الفرضيّة التي طرحناها ، كان علينا أن نتحرّز كثيراً ونحتاط للأمر من قبل أن نسمح للمزبر بالتّخطيط .

عدنا إلى بعض المصادر التي تناولت الفترات المختلفة للدّول التي تعاقبت على الجزائر، فلم نكد نحصل على شيء ذي غناء . بيد أنّ بعضها الآخر كان مؤلّفها ذا مستوى فكريّ ومستوى عقليّ معاً فلم تفتته هذه المأثرة التي هي عنوان التّقدّم، وسمّة التّحضّر . ومن هؤلاء المستنيرين نجد الأديب الشّاعر الفقيه ابن مرزوق الخطيب (. 781 هـ) الذي قال في معراض التّقرّيز للملك المربنيّ أبي يوسف يعقوب: « إنّ إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف، حتّى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد أبو يوسف يعقوب بن عبد الحقّ مدرسة الحلفائيّين بفاس (مدرسة الصّقّارين 668 هـ / 1270 م) . غير أنّنا نرى القوم يومئذ تغلب عليهم علوم الشّريعة والدين، ولا حظّ لهم في غيرها من الفنون العقلية إلّا قليلاً ممّا جاءهم من علماء

أندلسيين أو مشاركة، وذلك لأن العلوم الفلسفية نشأت هنا على أيدي أفراد متفرقين، حرّكتهم الرغبة إليها، فهم متفرقون لا تربطهم مجالس. وهم فوق ذلك تحت رقابة من علماء الرسوم المترمّتين . «⁽⁹⁾»
وقول الخطيب ابن مرزوق هذا ينمى فيه على الطريقة التي كانت تُتبع في التدريس، وهي طريقة قلّما سلمت من القدح والتشنيع والتضائق بها، وربما الزهد في التعلّم ثمّ النفور منه، وهذا ما جعل بعض المغريين يذهب إلى القول: « القراءة (التدريس) تصحيح المثّن، وتبيين ما أُشكّل، وتتميم ما نقص، وما زاد عليه فضررُهُ على المتعلّم أكثر من نفعه »⁽¹⁰⁾ .

وتعرّض ابن خلدون لصناعة التعليم، فاستحسن طرائق التدريس في تونس وبجاية وتلمسان، ولكنّه انتقد تعليم فاس لأنّه . في نظره . لا يُكسب متعلّمه ملكة، ولا يفتّق له لسانا، ولا يقرب مطلوباً⁽¹¹⁾ .
ولم يُغفل المفكر الاجتماعي ذكر العلماء والإشادة بهم، ولا سيّما أولئك الذين تركوا بصماتهم واضحات ليس على عصرهم وحده، ولكن على العصور اللاحقة من أمثال: الشريف التلمساني، وسعيد بن محمد العقباني حيث أكّد أنّ طريقة التعليم انتهت إليهما، وتوفّرت فيهما ملكة التلقّي، لكونهما ألفا التصانيف البعيدة، وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع⁽¹²⁾ .

وكان القاضي أبو عبد الله المقرئ التلمساني المتوفّي بفاس عام 758 هـ قد انتقد طريقة التدريس على عهده فنقل رأي شيخه وأستاذه الآبلي (- 757 هـ) قال فيه : « إنّما أفسد العلم كثرة التّواليف، وإنّما أذهبه ببيان المدارس »⁽¹³⁾ .

ثمّ قال بعد ذلك: « وقد اقتصر أهل هذه المئة على حفظ ما قلّ لفظه، ونزّر حظّه، وأفنوا أعمارهم في فهم رموزه، وحلّ لغوزه⁽¹⁴⁾ ، ولم يصلوا إلى ردّ ما فيه إلى أصوله بالتّصحيح، فضلاً عن معرفة الضّعيف من ذلك والصّحيح . »⁽¹⁵⁾

وتحدّث الغبريني (- 704 هـ) عن جانب من هذه الطرائق وهو يترجم لأبي بكر بن سيّد الناس الإشبيليّ نزيل بجاية المتوفّي بتونس عام 659 هـ فقال: « كان إذا قرأ الحديث يُشندّه إلى النّبيّ (ص) ، ثمّ يأخذ في ذكر رجاله من الصّحابة إلى مشيخة كلّ واحد باسمه ونسبه وصفته وولادته ووفاته، ولا يزال يتبعهم واحداً واحداً إلى أن ينتهي إلى شيخه فيقول: أمّا فلان شيخنا، ويذكر ما ذكر فيمن تقدّم، ويزيد على ذلك بأنّه لقيه وقرأ عليه كذا، وسمع منه كذا، وبعد الفراغ من ذلك يذكّر لغة الحديث وعربيّته، ويتعرّض لما فيه من الفقه والخلاف العالي . »⁽¹⁶⁾

مدرسة بجاية:

يعسر الحديث عن هذه المدرسة بتدقيق وتفصيل؛ فهي ليست مثل مدرسة تلمسان التي كثر توثيقها وتعدّد الحديث عنها في مختلف الموسوعات والمؤلّفات؛ ولذلك لا نستطيع أن نذهب بعيداً في الحديث عنها ونقتصر على ما اقتطعناه واقتبسناه من بعض النصوص عَرَضاً :

فقد التجأ إليها عدد هائل من العلماء الأندلسيين فراراً من أسبانيا النصرانية تمثّل في علماء الفقه والحديث واللغة، فقد نصّ الفقيه الإمام أبو عليّ حسن بن عليّ بن محمد المسيلي على أنّه كان ببجاية تسعون مُفتياً .

وبما أنّنا لا نملك منهج هذه المدرسة بجلاء، فإنّنا نثبت هاهنا مشيخة الغبريني أحد علماء وشاهد صدق لها، فمن خلال تعلّمه ندرك صورة هذه المدرسة وبرنامجها مثلما أورده هو نفسه بقلمه؛ فقد ذكر أنّه أفاد ممّا تلقّاه من العلم و رواه، وأكّد أنّه يورد الطّريقة التي تعلّم بها كي يتسوّى لمن رام أن ينتفع بها من الاطلاع عليها. وقسم العلوم التي تلقّاها إلى نوعين: سَمّى الأول منهما الدّراية؛ ويعني به : علم الفقه، وعلم الأصول (أصول الدّين، وأصول الفقه) ، وعلم العربيّة، وعلم التّصوّف، وعلم المنطق. وسَمّى الآخر علم الرّواية .

ثمّ يحدّد أسماء الأساتذة الذين درّسوه العلوم المذكورة كما يفصّله هو نفسه في آخر كتابه المذكور كذا مرّة؛ فقد تلقّى :

. الفقه: على كلّ من أبي محمد عبد العزيز القيسيّ، وأبي محمد عبد الله بن عبادة، وعلى الشّيخ أبي محمد عبد الحقّ بن ربيع، وأبي العباس الغماري، وأبي القاسم بن زيتون، وأبي محمد عبد المجيد، وأبي العباس بن عجلان، وأبي عبد الله بن يعقوب الذي كان قاضياً أيضاً .
. علم الأصول: على كلّ من الشّيخ الفقهاء أبي العباس بن خالد، وأبي محمد عبد الحقّ ... وغيرهما .

. علم العربيّة: تلقّاه على أيدي الأساتذة اللّغويين من أمثال: أبي عبد الله التّميمي، وأبي الحجاج بن سعيد، وأبي عبد الله الكناني (وهو يعني بهذا العلم موادّ كلّ من النّحو، واللّغة، والأدب، والتّصريف) .
. المنطق: على الشّيخ المتخصّصين (اقتصر على ذكر اسم واحد منهم ؛ هو أبو العباس بن خالد) .

. التّصوّف: على الشّيخ أبي محمد عبد الحقّ بن ربيع، وأبي عبد الله السّجلّماسي، وأبي الحسين الرّندي، وأبي زكريّا بن محجوبة

مدارس تلمسان :

مما لا يحجده جاحد؛ هو أنّ بني زيان كانت لهم يد بيضاء على إنشاء المدارس التي تُعدّ مراكز لتأصيل الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ونافذة على استقطاب الأساتذة والطلّبة ليس من الجزائر فحسب، بل من مختلف أقطار المغرب العربيّ، على أنّه يعسر تفصيل الحديث عنها وتقديمها بصورة غير ضبابيّة، لأنّ معظم المظانّ التي تعرّضت للثّقافة العربيّة في الجزائر على هذا العهد لم تول كبير اهتمام للمدارس، وراحت

تحدث في إنجاز كبير عن العلماء الذين كانوا سبب وجودها، والمحافظين على بقائها. على أننا . ونحن نقوم بتحرير هذا البحث . ألفينا جانباً من الحديث عنها في طيّات كتابي المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي (17) ، والأديب محمد بن رمضان شاوش (18) ، فأفدنا من جهودهما التي تضيف جديداً بلا ريب، وتُريح العُنب عن تلك الأيام الحافلة بالأعاجاد والأعمال الجليلة، باعتبار أن المدارس هي صورة لحضارة الشعوب وتقدمها كائنة ما كانت. فقد تحدّث عبد الرحمن الجيلالي عن هذه المدارس بإجمال، فقال: « وكان من معاهد العلم الشهيرة بتلمسان مدارس كثيرة؛ منها: مدرسة منشّر الجلد، ومدرسة ولدي الإمام، والمدرسة التاشفينية . حطّمها الاستعمار الفرنسي البغيض سنة 1275 هـ / 1859 م . والمدرسة اليعقوبية المنسوبة إلى أبي يعقوب والد السلطان أبي حمّو الثاني؛ وهي التي أقامها على ضريح والده يعقوب في شعبان سنة 762 هـ (يونيو 1361م) ولم يبق منها اليوم إلاّ مسجدها المشهور باسم جامع سيدي إبراهيم المصمودي دفين هذه التربة، والمتوفى سنة 805 هـ (1403م)، ومدرسة أبي حمّو الثاني، ومدرسة أبي الحسن المريني بالعباد « (19) .

ومن خلال هذا النصّ نستنتج حقيقة لا تخفيها الأوهام، ولا تغفو عليها الأباطيل، وهي أنّ مدينتنا هذه كانت آهلة بصنوف العلم، وفنون المعرفة، بما كانت تنشره مدارسها، ويثّثها علمائها، وقد استطعنا أن نحصي منها ستّاً وقد تكون هناك مدارس أخرى لا نعلم عنها شيئاً بسبب تقادم العهد، وتجهيل الاستعمار الحقود الذي حاول أن يطمس معالم حضارتنا، ويغيّب إشراقة شمسنا. ويجدر التوضيح بأنّ التعلّم فيها كان مجّاناً لكلّ أفواج الطلبة الذين راحوا يتوافدون على هذه المدينة، والتي فتحت لهم ذراعيها واحتضنتهم في حدّ وحنان، ومنحتهم ما رغبوا فيه وتاقوا إليه من علوم الحكمة، والفلسفات، والرياضيات، والطب، والموسيقا (20) .

وزيادةً في التفصيل، نورد ما نصّ عليه محمد بن رمضان شاوش من تبين لأهمّ المدارس التي عرفتها مدينة تلمسان؛ والتي تتمثّل في :

- 1 . المدرسة القديمة (مدرسة ابني الإمام) : أنشأها أبو حمّو موسى الأوّل عام 710 هـ (1310 م) كان موقعها غرب مسجد ابني الإمام الذي لا يزال قائماً بحيّ المطر قديماً .
- 2 . المدرسة التاشفينية: وأُطلقت عليها هذه التسمية نسبةً إلى مؤسسها السلطان أبي تاشفين الأوّل فيما بين 717 و 728 هـ (1316 و 1327 م) وكان موقعها جنوب الجامع الكبير، وكانت مساحتها تشغل ساحة الأمير عبد القادر ودار البلدية كليهما، وما جاور البلدية غرباً. وقد أدّت دوراً عظيماً طوال خمسة قرون أو أزيد؛ درّس فيها مشاهير علماء تلمسان، وتخرّج في حرمها شيوخ من مختلف الأصقاع الإسلامية .

والمدرسة التاشفينية هذه حظيت بتقدير كل من رأى معالمها في زمانها، وأفاد من علمائها؛ فقد أشاد التنسي الحافظ (. 899 هـ) بمؤسسها أبي تاشفين الأول وأبرز شغفه الشديد بتجهيز الدور، وتشيد القصور؛ ليصل إلى الحديث عن إبراز مفاتن هذه المدرسة وجمالها فيقول عن مؤسسها: « وحسن ذلك كله ببناء المدرسة الجلييلة العديمة النظير التي بناها بالجامع الأعظم ما ترك شيئاً مما اختص قصره المشيد إلا وشيد مثله بها، شكراً لله صنعه، وأجزل عليه ثوابه، فقد كان له بالعلم وأهله اختفال، وكانوا منه بمحلّ تهّم واهتبال . » (21)

ويعصف هذه المدرسة أحمد المقرئ (. 1041 هـ) على أنها من بدائع الدنيا، حيث شاهد بعينه أوثاناً مكتوبة حول دائرة عين جارية بساحتها تعبّر على لسان حال هذه العين؛ وهي (الكامل):

انظر بعينك بهجتي وسنائي

وبديع إتقاني وحسن بنائي

وبديع شكلي واعتبر فيما ترى

من نشأتي؛ بل من تدفق مائي

جسم لطيف دائب سيلانه

صاف كدوب الفضة البيضاء

قد حفّ بي أزهار وشي تمقت

فعدت كمثّل الرّوض غبّ سماء (22)

3. مدرسة سيدي أبي مدين: أنشأها أبو الحسن المريني سنة 747 هـ (1347 م) وموقعها غرب جامع سيدي بومدين بقرية العباد .

4. مدرسة وزاوية سيدي الحلوي: أورد ذكرها ابن مريم (23) ، لكنّه لم يُعط أية تفاصيل عنها، بيد أنّ المحتمل هو أنّها أنشئت بعد تشييد جامع سيدي الحلوي، وقد يكون مؤسسها هو أبا عنان فارس .

5. المدرسة اليعقوبية: أنشأها السلطان أبو حمّو موسى الثاني عام 765 هـ (1363 م)، وكان موقعها شمال جامع سيدي إبراهيم المصمودي، وسميت باليعقوبية نسبةً إلى أبي يعقوب والد السلطان أبي حمّو لقربها من ضريحه . وأول من أسندت له رئاسة التدريس بها الأديب الفقيه الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسني (- 792 هـ) ، وقد حضر السلطان نفسه لابتداء الإقراء بها (24).

6. مدرسة سيدي الحسن بن مخلوف الراشدي (أبركان): وقد أسست ما بين 834 و 865 هـ (1431 و 1462 م) وموقعها قرب أطلال مسجد سيدي أبي الحسن المذكور؛ لكن مكانها المحدّد غير معروف، بسبب انطماس معالم هذه الآثار .

7. مدرسة منشـر الجـلد: وهي مجهولة من حيث النشأة، والموقع، والمؤسس، وإن كان بعض

الدّارسين يُرجع موقعها إلى جوار مسجد ابن البناء، لكنّه مجرد تخمين يحتاج إلى توثيق .
ويُستنتج من خلال إثبات هذه المدارس أنّ تلمسان كانت بحقّ عاصمة للعلم والثقافة، وقبلةً
لطلّاب المعرفة؛ ولاسيّما أنّ هذه المدارس في مستواها كانت تعادل ما يُوازي في زماننا هذا مستوى الجامعة
من حيث تعدّد الموادّ، وعدد الأساتذة... وهلمّ جرّاً...

ثالثاً : الأعلام المدرسون:

بعد الأريضية السابقة التي بسطناها عبّر الصفحات أعلاه؛ والتي تناولت بعض المراكز الثقافية،
والمدارس، وطرائق التدريس بصفة موجزة؛ نصل إلى النقطة الأخيرة من هذا العمل؛ وهي التي تتّوج ما
وضعناه من لبنات قبلها. ذلك أنّ المدرسين يصعب حصرهم، ويعسر إحصاؤهم، فهم يناهزون الألف إن
لم نقل الآلاف؛ ولكنهم ماثونون في مظانّ متباينة، وقاصية، وأحياناً غامضة، تتطلب الجلد الشديد،
والإرادة الفولاذية، وحتىّ العمر المديد؛ وهي صفات قلما تتوفر لباحث. وإيماناً منا بأنّ « ما لا يُدرك كلّهُ،
يُدرَك كُنْههُ » أثبتنا أدناه بعض الأعلام الذين كان لهم دور في ازدهار حركة التدريس والتنافس في إقرأ
العلم على أصعدة مختلفة (25)؛ وهؤلاء الأعلام هم :

1. إبراهيم بن يخلف التنسي:

هو أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام المطمطي. وُلد بمدينة تنس، وهو من عائلة
علم وجاه؛ إذ إنّ شقيق الإمام أبي الحسن التنسي صاحب المسجد الذي سُمّي باسمه، والمتوفى سنة 703
هـ . ويُعدّ مترجماً هذا أصغر من أخيه أبي الحسن سنّاً. بيد أنّ ذلك لا يعني أنّه كان مقصراً أو صغير
الشأن؛ بل دليل أنّه ترأّس التدريس والفتوى في أقطار المغرب العربيّ كلّها، تنال عليه الأسئلة من تلمسان
ومن إفريقية يومئذ. تلقّى معارف عصره وألمّ بها من لغة وبيان وفقه وعقيدة... هذا ما يُستشفّ من سيرته؛
لأنّ المصادر التي ترجمت حياته آثرت أن تسكت عن شيوخه في الجزائر، واكتفت بالكشف عن شيوخه
خارج الجزائر فذكرت أنّه بعد ما غادر بلدّه مرّ بتونس فقرأ بها على جماعة، وحين انتقل إلى المشرق التقى
أعلاماً بمصر والشّام، حيث روى عن ابن كحيلي، وناصر الدّين المشدالي، وبالقاهرة تلقّى (المحصل)
على الشّمس الأصبهاني، والمنطق والجدل على القراني، وحضر على السيّد الحنفي (الإرشاد)
للعميريّ حتّى ختمه ولم ينبس ببنت شفة . فلما أعاد قراءته ، فأول ما قرّر به السيّد الحنفيّ
كلام المصنّف؛ فقال الشّيخ أبو إسحاق: عندي تقريركم لهذا الموضوع بغير هذا، فطلّب منه تقريره فقرّره، ثمّ
أحضر لهم تقييداً قيّده على الشّيخ في المرّة الأولى، فأمر الشّيخ بقراءته، فقرأ عليه حتّى ختم، واستحسنه
كلّ من حضر، وهو الشرح الموجود بين الناس يعزوه بعضهم لسيّد الدّين (26) .

ومّا لا شكّ فيه ، أنّ شهرته سبقته إلى المشرق، لأنّه كان قد ذاع صيته في تنس، فتناهى ذلك كلّ إلى لسلطان يغمراسن، فرغبه في القدوم إلى تلمسان، وظلّ يُراوده حتّى لبيّ طلبه بعد ما كان مستنكفاً متأبياً أوّل الأمر، حيث كان يقيم أشهراً ثمّ يعود إلى تنس . لكنّه أطلّ المكوث بعد ذلك حيث درّس بها وتخرّج على يده خلق كثير؛ منهم الشّيخ أبو عبد الله بن الحاج صاحب « المدخل » .
توفيّ بتلمسان عام 680 هـ (1282 م) ودُفِنَ بالعُباد .

مؤلفاته:

يبدو أنّه لم يهتم كثيراً بالتأليف، واكتفى ببعض الشروحات؛ منها: « شرح التلقين » للقاضي عبد الوهاب أبي محمد بن نصر البغداديّ (عشرة أسفار) لكنّ هذا الشرح قد ضاع في أثناء حصار تلمسان الذي استغرق ثمانية أعوام وبضعة شهور .
آراء الآخرين فيه:

تحدّث عنه العبدريّ في رحلته فقال:

« كان الشّيخ أبو إسحاق التنسي وأخوه فقيهين مشاركين في العلم مع مروعة تامّة، ودين متين؛ وأبو إسحاق أسنهما وأسناهما، وهو ذو صلاح وخير. وكان شيخنا (الزّين بن المنير) . حفظه الله . يُثني عليه كثيراً. وسألني عن الغرب فذكرت له قلة رغبة أهله في العلم، فقال لي : بلادٌ فيها مثليّ أبي إسحاق التنسي ما خلّت من العلم، ولقيتهما بمصر، وكان أبو الحسن لم يحجّ فحجّ معنا، فلقيت منه خيراً فاضلاً » (27) .

2 . عبد العزيز بن عمر بن مخلوف:

هو أبو محمد أبو فارس عبد العزيز بن عمر بن مخلوف العيسي، وُلد بتلمسان يوم الثلاثاء 13 من جمادى الآخرة سنة 602 هـ (1205 م) وبها ترعرع ودرّس ما كان معروفاً في عهده؛ ولاسيّما علم الأصلين .

وبعد أن اشتدّ عوده، ونضج فكره، قرّر الرّحيل، فانتقل إلى عاصمة أخرى من عواصم العلم في المغرب الأوسط (بجاية) التي طاب له المقام فيها، وتمّ له الالتئام بالنفسيّ والروحيّ، فألفى عند أهلها إقبالاً على دروسه، واعتناءً بذرره، فلم يضمن بنشرها بينهم، بل عمل على أن يأخذ منها كلّ ناشدٍ لها بنصيب .

في أثناء إقامته احتكّ بنخبة من العلماء الأجلاء لصقل مواهبه، وإثراء معارفه؛ منهم: أبو بكر بن محرز، وأبو الحسن بن أبي نصر، وأبو الحسن الحرالي، وأبو العباس الملياني، وأبو زيد الزيناسي، وهذا قبل أن ينتصب للتدريس بصفته أستاذاً متميزاً له قدرة على التبليغ، واستعداداً للتمرين والتصحيح .
وككلّ عالم مدرّس، فقد ترك بصماته على التلامذة الذين كانوا أكثر استعداداً وأصلحاً للتقبل والإدراك، من هؤلاء العلامة العُزْبيني (704 هـ) .

تولّى خطة القضاء ببجاية وبسكرة وقسنطينة والجزائر (العاصمة حالياً) فضلاً عن التدريس الذي اشتهر به .

تُوفّي بالجزائر في 12 جمادى الآخرة سنة 686 هـ (1287 م) (28) .

تدريسه:

تحدّث الغبريني عن طريقة تدريسه فقال: « شيخنا الشيخ الجليل الفقيه القاضي العالم المتّقن المحدث (... خزانة مالك . رضي الله عنه . فصيح اللسان والعبارة، حسن الإشارة، له عُكُوفٌ على التدريس ، ذُؤُوبٌ عليه، كان له درسٌ بالعادة، ودرس بين الصلّاتين، ودرس بين العشاءين، كلّها دروس مشهورة، وأوقات باستفادة العلم مقصودة، دأب على هذا مدّة طويلة من عمره، واقتصر بعده على تدريس درسين: أحدهما في مسجده بالعادة بعين الجزيري، والآخر بالجامع الأعظم بين الصلّاتين، وكان مبارك التعليم، ميمون النّقية في التفهيم (...) قرأت عليه - رحمه الله - وحضرت دروسه، وسمعت منه كثيراً، وقرأت عليه الجلاب « (29) .

3. عمران بن موسى المشدّالي *

هو أبو موسى عمران بن موسى المشدّالي ، وُلد عام 760 هـ (1271 م) كانت نشأته الأولى ببجاية ، ثمّ انتقل منها إلى الجزائر فارقاً من الحصار الذي ضرب عليها، وكانت شعرته ذائعة بلا ريب، وهو ما يفسّر دعوة صاحب تلمسان إليه ليلتحق بهذه المدينة العلميّة العريقة، فلبّى طلبه حيث قرّبه منه، وأكّرمه بما يليق بمقامه .

عند التحاقه بتلمسان، عرفت حياته مُنْعَطَفاً جديداً يشرف العلّ / والعلماء، فقد تصدّى للتدريس، وقام بتعليم الفقه والحديث والمنطق والفرائض والأصلين والجدل .

وعلى الرّغم من تعرّض بعض المصادر لسيرته، فإنّها . للأسف . أغفلت شيوخه وتلامذته، ولم نعرّ إلا على بعض الإشارات الخفيفة التي لا تقدّم جديداً ولا تجلّو غموضاً .

تُوفّي بتلمسان سنة 745 هـ (1344 م) (30) .

وصفه التّنبكتي (1306 هـ) بالفقيه الحافظ العلامة المحقّق الكبير، أخذ عنه المقرّي وغيره (31) .

نموذج من دروسه :

قال المقرئ: « سألته عن قول ابن الحاجب في السّهو : (فإن أخل الأعراض فيبطل عمده) فقال معناه: إنّ أخلّ غيره أنّه معرض فحذف المفعول الأوّل وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامهما ما في معناه من أنّ نحو: [أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا] ⁽³²⁾ المقرئ ⁽³³⁾ وأقوى من هذا كون المصدر هو المفعول الثاني ، وحذف الثالث اختصاراً لدلالة المعنى ؛ أي: أخلّ الأعراض كقولهم: خلّت ذلك . وقد أعربت الآية بالوجهين، وهذا عندي أغرب، ومنه قول القضاة أعلم باستقلاله؛ أي: أعلم الواقف عليه بأنّه مستقلّ فحذفوا الأوّل وصاغوا المصدر ممّا بعده » ⁽³⁴⁾ . مؤلفاته:

لم تصلنا آثار له تستحقّ التنويه، غير ما نصّ عليه التنبكتي من أنّه ترك مقالة مفيدة عنوانها: « اتّخاذ الرّكاب من خالص الفضّة » وأنّ الونشريسي نقل عنه في مواضع .

4. أبناء الإمام :

أنجبت هذه الأسرة طائفة من العلماء الأفاضل الذين أسهموا بقسط وافر في إثراء الحركة الثقافيّة على أيّامهم، وتصدّروا مجالس العلم، وترأسوا مناصات التدريس . ومن هذه العائلة الغنيّة بعلمائها يجدر التنويه ببعض أسمائها من أمثال :

أ . إبراهيم بن عبد الرحمن بن الإمام:

وصفّته المصادر التي اهتمّت به على أنّه الفقيه الحافظ الحجّة ابن شيخ الإسلام، الإمام أبي زيد بن الإمام، وأنّ له علوماً جمّة، وفتاوى عديدة، ولاسيّما أنّ المازوني والونشريسي قد نقلّا عنه في نوازلهما .

توفيّ سنة 797 هـ (1394 م)، ودُفن بباب الجيزين بفاس ⁽³⁵⁾ .

ب . أبو زيد بن الإمام :

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام: لا يُذكر إلّا بمعيّة شقيقه أبي موسى عيسى بصفتها صنيّوين من شجرة مخضرة الأوراق، مديدة الفروع أباً وأماً. لذلك قال فيهما ابن فرحون في الديباج: « أبو زيد شيخ المالكيّة بتلمسان، العلامة الأوحد أكبر الأخوين المشهورين بأولاد الإمام التّنسي البرشكي، وهما فاضلا المغرب في وقتهما، وكانا خصيصين بالسلطان أبي الحسن المريني، تحرّج بهما [كذا] كثير من الفضلاء » ⁽³⁶⁾ .

ومّا هو جدير ذكره، اذ هذين الأخوين يعود نسبهما إلى (برشك) ⁽³⁷⁾، وأنّ أكبرهما أبو زيد، ووالدهما هو محمد الإمام، إمام برشك .

ولقد أكثر هذان الأخوان من الترحال والتطواف في شباهما، فانتقلا إلى تونس حيث تلقيا العلم على نخبة من الشيوخ؛ منهم: ابن العطار، والبطروني، وابن جماعة... ثم قفلا راجعين إلى تلمسان في أول المئة الثامنة فألقياها محاصرة .

لبثا بعض الوقت فيها قبل أن يعيدا كرة الترحال سنة 720 هـ، فانتقلا هذه المرة إلى المشرق ، وهو ما مكّنهما من توسيع مداركهما الفكرية بوساطة حلق الدروس التي حضراها، كما قاما هما بالتدريس هناك ، حيث يذكر المقرئ أنه سمع عليهما في المشرق (38) .

وفي تلك الديار الشرقية أحسّا بينابيع العلم تتجسّس من صدريهما فنقلا ذلك إلى الحوار والمناظرة حيث نظرا التقى ابن تيمية فتفوقا عليه، وكان أحد الأسباب التي أشعلت فتيل محنته . بعد عودتهما ، اتصلا بأبي حمّو فاغتنب لمقدمهما، وأكرم مثواهما، واختطّ لهما <<المدرسة >> بتلمسان (39) ، وظلاّ مبجلين معظمين إلى أن أقبل نجم أبي حمّو، فلما تولى ابنه الملك من بعده ظل ملتزما لما خصّهما به والده .

وبعد سنوات من العطاء والتفتق الفكري والتفوق العلمي والتدريس الكادّ، انتقل إلى جوار ربّه (أبو زيد عبد الرحمن) سنة 743 هـ (1342 م) فظلّ شقيقه أبو عيسى موسى وفيّا للمنصب الذي أنيط به، لكنّ الأجل المحتوم عاجله هو أيضاً ليلتحق بأخيه في دار الخلود سنة 749 هـ (1348 م) . تلامذتهما:

إنّ ممّا يُسعد المرء ويُدهشه في الآن ذاته، هو هذا التأثير العظيم في المتلقين، حيث إنّ معظم العلماء الجزائريين لم يخلّفوا وراءهم آثارهم مسجّلة على القرطاس الأعجم، بل تركوا رجالات أحياء واصلوا بعدهم الرسالة، وتابعوا نشر العلم وإبادة شبح الجهل؛ ومن التلاميذ الذين تخرّجوا في مدرستهما ومجلسهما العلمي، يمكن ذكر الشريف التلمساني، والمقرئ، وأبي عثمان العقباني، وابن مرزوق الخطيب، وغيرهم ...

5. الآبلي:

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدريّ التلمسانيّ الشهير بالآبليّ (40) . وُلد بتلمسان عام 681 هـ (1282 م) ونشأ بها تحت كفالة جدّه القاضي ، فقراً ما كان يتلقاه أُناده عادةً في عصره . حاول يوسف بن يعقوب أن يستخدمه . بعد استيلائه على تلمسان . فاشمأز من ذلك وآثر التملّص بالتوجّه إلى الحجّ وسنّه فتية ... وبعد عودته إلى مسقط رأسه عاد إلى التعلّم في نشاط حثيث، حيث تلقى المنطق والأصليّن على أبي موسى بن الإمام، كما أخذ عن أبي الحسن التنسي بعض القضايا الفقهية .

وحين اشتهر في الناس ذكره، قرّر أبو حمّو إكراهه على العمل في ديوانه؛ لكنّه لم يستجب لرغبته هو أيضاً، وارتحل سراً إلى المغرب الأقصى، فنزل مدينة فاس وظلّ مختفياً لا يخرج إلى الأضواء ممّا أزر معارفه، ومكّنه من إثراء معلوماته، وتحديد نظريّاته.

وفي سنة 710هـ ارتحل إلى مراكش لينزل تلميذاً على الإمام ابن البناء الذي كان متضلّعاً في علم المعقول والمنقول، والتّصوّف، فأُتيح له أن ينمي معارفه أكثر. ثمّ أقبل على شيخ المصاكرة عليّ بن محمد حيث ظلّ ملازماً محاضراته وندواته الفكرية والعلمية حيناً من الدهر، فأحبّه هذا الأستاذ الجليل وقرّبه إليه. وبعد أن آنس من نفسه القدرة على التّصديّ للتّدرّس، والانتصاب للإفتاء والتّأويل، عاد إلى فاس، فأقبل الطّلبة على دروسه بشكل منقطع النّظير، وتألّق في السّماء نجم شهرته أكثر. وحينما غزا السّلطان أبو الحسن المريني تلمسان سنة 727هـ التقى أبا موسى بن الإمام فحدّثه عنه وأشاد بعلمه؛ فتاق السّلطان إلى رؤيته والاجتماع به، فاستقدمه وضمّه إلى مجلسه العلميّ، فظلّ في البلاط عاكفاً على التّدرّس والتّثقيف مدّة... ثمّ بعد ذلك انتقل إلى بجاية وأقام بها شهراً درّس خلاله طلبتها مختصراً ابن الحاجب الأصليّ ليعود على أثره نحو تلمسان مجدّداً، فألفأبا عنان قد تولّى الملك مكان أبيه، فقام بدعوته لينضمّ إلى شيوخ العلم والمعرفة، وحين قفل السّلطان راجعاً إلى فاس رافقه بصفته من خاصّته حيث ظلّ في كنفه إلى أن أتاها اليقين بهذه المدينة العلمية في ذي القعدة من عام 757هـ (اكتوب 1356م).

تلامذته:

تعلّم على يده أفواج من الطّلبة غدوا شيوخاً مشهورين؛ منهم العالم الموسوعيّ أحمد المقرّي، والسّلطان أبو عنان المريني، والمؤرّخان القديران: عبد الرّحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، ثمّ الصباغ المكناسي، والشّريف التلمساني، والشّريف الرّهوني، وابن مرزوق الخطيب، وأبو عثمان العقباني، وابن عرفة. آراؤه:

كان يقول مثلما رواه المقرّي: «إنّما أذهب العلم كثرة التّأليف، وأذهب به بنیان المدارس.»⁽⁴¹⁾. وكان يقول: «لولا انقطاع الوحي لنزلّ فينا أكثر ممّا نزلّ في بني إسرائيل، لأنّنا أتينا أكثر ممّا أتوا.»⁽⁴²⁾.

تعليق:

يُستنتج من تشييعه الأوّل بالتّأليف أنّه كان يستنكف من التّأليف والتّقيّد بالأنظمة البيداغوجيّة الصّارمة، ولعلّ أنّ هذه من الأسباب التي جعلت من أرخوا له وعُنوا به لم يشيروا إلى أيّ أثر من آثاره.

أمّا اشتمّازه من المدارس فيؤيّده فيه التّنبّكي بسبب ما شاب بعضها من إهمال، ففُتِح المجال لمن لا يفقه شيئاً أن يتجرّأ على التّدريس فيها ؛ قال مظاهراً ومزكياً له: « ولعمري ، لقد صدق في ذلك وبرّ، فلقد أدّى ذلك لذهاب العلم بهذه المدن الغربيّة [يريد : المغربيّة] التي هي من بلاد العلم من قديم الزّمان كفاس وغيرها حتّى صار يتعاطى الإقراء على كراسيها من لا يعرف الرّسالة أصلاً، فضلاً عن غيرها؛ بل من لم يفتح كتاباً للقراءة قطّ، فصار ذلك ضحكة، وسبب ذلك أنّها صارت بالتّوارث والرّئاسيات » (43) .

آراء الآخرين فيه:

وصفه تلميذه المقرئ فقال: « هو الإمام نسيج وخديّ ، ورخله وقته في القيام على الفنون المعقوليّة وإدراكه وصحّة نظره ... فلمّا افتتحت تلمسان لقيته بما فأخذت عنه » (44) .

وقال فيه العالم الاجتماعيّ ابن خلدون: « لازمت مجلسه وأخذت عنه فنوناً » (45) .

كما تحدّث عنه يحيى بن خلدون الذي هو أحد تلامذته أيضاً، فقال: « إيّ لا أعرف بالمغرب وإفريقيّة فقيهاً كبيراً إلّا وله عليه مشيخة » (46) .

6 . الإمام منصور بن عليّ الزّواوي:

هو أبو عليّ منصور بن عليّ الزّواوي أصلاً، التلمسانيّ داراً . وُلد سنة 710هـ (1311م) ، وتلقّى معارفه الأولى في مسقط رأسه ولاسيما حفظ القرآن الكريم، وقليل من الفقه والأصول. ومن الذين أخذ عنهم: والدّه عليّ بن عبد الله، والإمام المجتهد منصور المشدّالي الذي قرأ عليه أوائل ابن الحاجب، وابن المسفر، وأبو عليّ بن حسين الذي قرأ عليه جانباً من الحاصل، والعالم الدّينيّة والفقهية، والآيات البيّنات. والخوانساري، وقاضي بجاية أبو عبد الله بن يوسف الزّواوي، وأبو العبّاس بن عمران. وحين انتقل إلى تلمسان أخذ عن كلّ من العالم عبد المهيمّن الحضرمي، وأبي العبّاس بن يزبوع، والقاضي أبي إسحاق بن يحيى .

ومع كلّ هؤلاء العلماء الذين أسهموا في تكوينه؛ فإنّه قد استشفّ أنّ نفسه ما تزال محتاجة إلى الغرّف من ينابيع علم ومعرفة جديدين، فبارح وطنه حالاً بالأندلس ممّا مكّنه من الالتقاء بابن الفخّار البيري، حيث لازمه مُقبلاً على دروسه حتّى وفاته؛ هذا العالم الذي أجاز له في التّحليق بموضع تدرّسه، ثمّ القاضي الشّريف السّبيّ الذي لازمه بدوره وأخذ عنه تأليفه، وقرأ عليّه « التّسهيل » ... فلمّا عاد إلى تلمسان أكبّ على التّدريس بما حتّى أتاه اليقين ، (وسنة الوفاة مجهولة) ، ولكنّ المظانّ تذكر أنّه كان على قيد الحياة بعد عام 770هـ (1368م) .

ويبدو أنه حين انتقل إلى الأندلس لم يقصدها متعلماً فحسب؛ ولكنه قد حصّن ثقافته، وبلور فكره، وحقق نتائج علمية مرموقة، مما جعله يُستقبل في هذه الديار بترحاب وتلهّف على الرشف من أريج زهر علمه.

آراء الآخرين فيه:

قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة: « قدم الأندلس عام ثلاثة وخمسين وسبعمئة، فلقي رُحباً وعرف قدمه، فتقدّم مقرّناً بالمدرسة تحت جِراية نبيهة، وحلّق للناس متكلماً على الفروع الفقهية والتفسير، وتصدّر للفتيا ... » (47).

وقال عنه الشيخ يحيى السراج الذي كان أحد المتلقين عنه: « شيخنا الفقيه الأستاذ الجليل المدرّس الأصولي النحوي ... كان شيخاً فاضلاً فقيهاً نظاراً معدوداً في أهل الشورى . له مشاركة في كثير من العلوم النقليّة والعقليّة، وإطلاّعٌ وتقيدٌ ونظرٌ في الأصول والمنطق والكلام، حريصاً على الإفادة والاستفادة، مثابراً على التعلّم والتعليم » (48).

ووصفه ابن الخطيب في الإحاطة بالطُّهر في الفكر، والصفاء في القول، والوفاء بالعهود، والحفظ للسان، والاتّصاف بالتواضع؛ فقال: « هذا الرجل صاحبنا طرّف في الخير، والسلامة، وحسن العهد، والصّون، والطّهارة، والعفة، قليل التصنّع، مؤثر الاقتصاد، منقبض عن الناس، مكفوف اللسان واليد، مشغولٌ بشأنه، عاكفٌ على ما يعنيه، مستقيم الظاهر، ساذج الباطن، مُنصفٌ في المذاكرة، موجبٌ لحقّ الخصم، حريص على الإفادة والاستفادة، مثابرٌ على تعلّم العلم وتعليمه، غير آنفٍ من حوله عمّن دونه جملة من جمل السدّاجة الرجوليّة، وحسن المعاملة، صدّر من الصدور، له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية، وإطلاّعٌ وتقيدٌ ونظرٌ في الأصول والمنطق والكلام، ودغوى في الحساب والهندسة والآلات، يكتب ويشعر فلا يعدو الإجازة والسداد » (49).

هذا هو المدرّس الذي أفنى حياته في خدمة العلم والمتعلمين، فبذل ما استطاع من أجل أن يطرد جحافل الجهل، وينشر مصابيح النور والهدى في كلّ دار من الديار المغربية التي احتكّت بمعارفه. وقد يكون اعتكافه على التدريس ورغبته في تخريج أجيال مقتدرة على تحمّل الرسالة من بعده، هو الذي حال دون أن يترك وراءه مصنّفات وتآليف، غير بعض الفتاوى المبتوثة في « المعيار » للونشريسي .

7. محمد بن أحمد الشريف العلوي*

إذا كان الأمر عسيراً بالنسبة لكثير من التّراجم التي أثبتناها، فإنّ الأمر معكوس تماماً بالنسبة لهذه الشخصيّة التي طفت على التّموجات، وعلت القمم متصلة ثابتة لم تفعل فيها شيئاً؛ بل إنّها ما تبرح مشرقة لماعة يُرى سناها من بعيد!

إنّه محمد بن أحمد بن عليّ بن يحيى بن عليّ بن محمد بن القاسم بن محمود بن ميمون بن عليّ بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب المعروف بالشّريف التلمسانيّ العلويّ (50) .

وُلد بتلمسان سنة 710 هـ (1310م) وقرأ لقرآن الكريم على الشّيخ أبي زيد بن يعقوب، وأخذ عن الإمامين أبي الإمام، وعن القاضي عبد الله بن هديّة القرشيّ، والشّيخ عبد الله المجاصي، والقاضي التّميمي، وأبي عبد الله بن محمد البروني، وعمران المشدّلي، وغيرهم ... ترك مسقط رأسه بعد أن آنس من نفسه القدرة على مزيد من الاستيعاب ، واتّسع حجم الفهم، فانتقل إلى تونس سنة 740هـ ليتلمذ على العالم الشّيخ أبي عبد الله بن عبد السلام، وابن عرفة، ويفيد منهما كثيرا، كما أنّه توجّه تلقاء مدينة فاس ، وأخذ عن بعض شيوخها .

عاد بعد ذلك إلى تلمسان، وانتصب للتّدريس، وزرع العلم والمعرفة، فأقبل على دروسه كثير من التّلامذة صاروا أعلاماً فيما بعد. ونظراً لمكانته العلميّة، ولقدرته على التأثير في التّبليغ، ولانصافه بصفاء الذّهن، والدّقة في التّوصيل، فقد استخصّصه السّلطان أبو عنان سنة 753هـ بمجلسه العلميّ ضامّاً إيّاه إلى نخبة من العلماء والمفكرين، ثمّ رحل بمعيّته إلى فاس ... وبعد أن استعاذ السّلطان أبو حمّو يوسف بن عبد الرّحمن تلمسان من بني مرين ، استدعى الشّريف من فاس ، فتلّقاه بترحاب، وشيّد له مدرسة أدارها بكفاءة وجدّ ومواظبة، يستقبل الأفواج تلوّ الأفواج من المتعلّمين إلى أن اختاره الله لجواره ليلة الأحد ، رابع ذي الحجة عام 771هـ (1370م) .

تلاميذه:

تلقى العلم على يده كلّ من ولده أبي محمد، والإمام الشّاطبي، وابن زمرك، وإبراهيم التّعري، وابن خلدون (عبد الرّحمن) ، والشّيخ ابن عتاب، وابن السكّاك، والفقيه محمد بن عليّ المديوني، والشّيخ إبراهيم المصمودي، وابن السّراج، وغيرهم ...

خصاله:

أحبّه شيوخه ورفعوا منزلته بسبب ما توسّموه فيه من صلاح وتقوى؛ حتّى قال فيه ابن عبد السلام يطّريه: « ما أظنّ أنّ في المغرب مثل هذا » .

وكان الفقيه موسى العبدوسي كبير فقهاء فاس يتصيّد ما يصدر عنه من تقييد أو فتوى فيكتبه وهو أسنّ من أبي عبد الله (51) .

وقال له الشّيخ ابن عرفة: « غايتك في العلم لا تُدرك . [ولما سمع بموته قال] : لقد ماتت بموته العلوم العقليّة » (52) .

آراء الآخرين فيه:

قال عنه الآبلي « هو أوفر من قرأ عليّ عقلاً وأكثرهم تحصيلاً » (53) .

وقال أيضاً: « قرأ عليّ كثير شرقاً وغرباً فما رأيت فيهم أنجب من أربعة: أبو عبد الله الشريف أنجحهم [كذا] عقلاً وأكثرهم تحصيلاً؛ وإذا أشكلت مسألة على الطلبة عند الآبلي ... يقول: انتظروا أبا عبد الله الشريف » (54) .

وقال فيه السلطان أبو عنان المريني وقد حضر مجلساً من مجالسه العلمية: « إيّ لأرى العلم يخرج من منابت شَعْرَه » (55) .

وقال ابن مرزوق الخطيب: « لما سافر أبو عبد الله لتونس كرهت مفارقتة، ولكن حمدت الله على رؤية أهل إفريقية مثله من المغرب » (56) .

وكان المحدث الفقيه القاضي أبو علي منصور بن هديّة القرشي يقول: « كلّ فقيه قرأ في زماننا هذا أخذ ما قدّر له من العلم إلاّ أبا عبد الله الشريف ، فإنّ اجتهاده يزيد، والله أعلم حيث ينتهي أمره (57) .
تدريسه:

لقد قام هذا الفقيه الأديب بتفسير القرآن الكريم خمساً وعشرين سنةً بحضرة أكابر الملو ك والعلماء والصلحاء وصدور الطلبة لا يتخلّف منهم أحد، وسبب هذا الإقبال الكبير على دروسه يعود إلى الطّبيعة البيداغوجيّة والمعرفيّة التي كانت تُلقى بها أو تُقدّم، أضفّ إلى ذلك تبصّره بالقراءة القرآنيّة والرّواية، وتبحّره في فنون علوم زمانه من بيان وأحكام، وناسخ ومنسوخ ، وهلمّ جرّاً ... هذا مع نبوغه وإمامته في الحديث وفقهه وغريبه ومتونه ورجاله وأنواع فنونه .

كان الشريف التّلمسانيّ قائماً على الفروع والأصول ثبّتاً وتحصيلاً، ومع ذلك لم يكن متحمّساً إلى الفتوى لورعه وخشيتيه من الله سبحانه وتعالى، كما كان يتجنّب الخوض في مسائل الطّلاق، ولا يرغب في الخوض فيها .

وأهمّ تدريسه بالإضافة إلى ما ذكرنا، كانت المدوّنة التي ظلّ يدرّسها بعد التّفسير . وعُرف عنه .
رحمه الله . أنّه كان يقسم الوقت على الطلبة بالزّمنية: ينام ثلث اللّيل، وينظر ثلثه، ويصليّ ثلثه؛ يقرأ كلّ ليلة ثمانية أحزاب في صلاته، ومثله في أوّل النّهار، ويؤاظب قراءة الحزب دائماً، ويقرأ من التّفسير نحو ربع حزب كلّ يوم مع البحث .
ثقافته:

مما لا شكّ فيه أنّ الشريف التّلمسانيّ كان بحر زمانه وآية أنداده، فقد كان على بصيرة من علوم اللّغة العربيّة وآدابها، يدلّ على ذلك تأليفه الموسوم: « مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول » حيث طبّق فيه مسائل الفقه مع الأصول، وكانت عبقرية تتفجّر في التّفسير وفي فقه السنّة فيوظّف اللّغة

الفصيحة العالية، ثمّ يَعرّجُ على النّحو والبيان، ويستظهر من حافظته غرائب اللّغة وغريب الشّعْر؛ مع ضرب الأمثال، وسرد أخبار النّاس ومذاهبهم، واستعراض أيّام العرب . كما كان عالماً بالمعنى الدّقيق للكلمة، مُتقناً للمنطق والحساب والفرائض والتّنجيم والهندسة والموسيقا والتّشريح والفلاحة، وجملّة من العلوم الأخرى .

ومن خلال الفاضلة أنّه كان محبّاً لغيره تشدّه الغيرة على دينه وعلى العلماء؛ فقد زجر أحد الملوك عندما همّ بضرب فقيه قائلاً له: « إن كان صغيراً فهو عند النّاس كبير، وإنّه من أهل العلم »⁽⁵⁸⁾. فنجا الفقيه بفضل فصاحة الشّريف وشجاعته وغيّره ومحبّته لغيره. وهذه شيمة قلّما تُلْفِي لها نظيراً في زماننا هذا ولاسيّما في أوساط المثقّفين وبين رجال التّعليم، حيث إنّ بعضهم يَكيّد للآخر، ويُجيك له المؤامرات الحمراء، وربّما يوقع به، أو يفرج لمآسيه وما قد يتعرّض له من محنٍ وإحْن! .

وكان دائم القراءة والاطّلاع، فتجتمعت عنده نحو السّبعين كتاباً يعود إلى مسائلها ويقلّب صفحاتها ... ونظراً لشهرته الواسعة، فقد أرسل إليه ابن الخطيب تأليفاً عرضه عليه ليبيدي له فيه رأيه، ويكتب عليه بخطّه⁽⁵⁹⁾ .

وظلّ دؤوباً على المزيد من العلم، والانكباب على العبادة والتّدرّيس إلى أن التحق بالرّفيق الأعلى؛ فلما تُوفي قال السّلاطان أبو حمّو الثّاني معزّياً ولده عبد الله في تأثّر: « ما مات من خلّفك، وإنّما مات أبوك لي، لأني [كنت] أباهي به الملوك »⁽⁶⁰⁾ . مؤلّفاته:

. القضاء والقدر .

. شرح جمل الخونجي .

. في المعاوضات .

. أجوبة عن أسئلة مشكّلة .

. مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول⁽⁶¹⁾ .

وغيرها ...

. له فتاوى مبثوثة في « المعيار » للونشريسي (1) : 105 / (2) : 47 ، 550 (9) : 258

، 269 ، 280 ، 282 ، 293 - 298 ، 300 ، 301 ، 308 ، 314 (11) : 28 ، 154)

(12) : 163 ، 170 ، 207 ، 211 ، 224 ، 225 ، 326 ..

8 . عبد الله بن محمد الشّريف :

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الشريف نجل العلامة الفقيه أبي عبد الله الشريف التلمساني (62) . وُلد بتلمسان عام 747هـ (1347 م) ودّرس على والده الذي كان موسوعة زمانه، وعلى بعض فطاحل العصر مثل ابن مرزوق الخطيب ...

ويُعَدُّ هذا الرجل غصنا من دوحة شرف وعلم سرعان ما أُنِعَ ورقه، وانتشر أريجُه، فانجذب نحو عطر رِيّاه كثيرٌ من المؤهّنين بتنسّم العلم، والتّاشدين تشرّب المعرفة! .

بعد وفاة والده انتقل إلى الأندلس مُصْطَفِياً مكان إقامته غرناطة، وفي هذه العاصمة العلميّة للغرب الإسلاميّ يومئذ؛ اتّصلت به مجموعة من الطّالّاب أفادوا من ينابيع فكره؛ منهم: أبو بكر بن عاصم صاحب « التُّحفة » . وبعد إقامة مطوّلة نسيباً في الدّيار الأندلسيّة، عاودَه الحنين إلى مِرابِع صباه ومسقط رأسه، فاستقلّ الباخرة ولواعجُه متقدّة، وأشواقُه عارمة؛ لكنّ إرادة الله حالت بينه وبين الاستنشاق من عبير تلمسان وهوائها الرّائق، لأنّ السفينة التي أقلّته ومن معه لم تثبت إزاء العواصف الهوجاء، فعلاها الموج ثمّ ابتلعها، فتوفّي هذا الأديب الفقيه غريقاً عام 792هـ (1390 م) .

وذكر المترجمون له أنّه كان نابغة زمانه من حيث التّبجّر في اللّغة العربيّة وآدابها، وفي النّوازل والأحكام على المذاهب المختلفة ، لا على مذهب مالك وحده . بيد أنّ مؤلّفاته . إنّ وُجدت . لم يذكر عنها المؤرّحون له عنها شيئاً، ولم تصلنا إلّا نُتف من هذه الآثار هي عبارة عن فتاوى أوردتها الونشريسي في معياره .

9. محمد بن عمر بن الفتوح :

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التلمسانيّ ثمّ المكناسيّ . نشأ بتلمسان، ودّرس بها ما كان شائعاً على عهده، ولاسيّما حفظ القرآن الكريم، والتّبخر في العلوم النّقليّة . ولا بدّ من الاعتراف بأنّ المظانّ أغفلت الإشارة إلى سنيه الأولى، فلم تذكر شيئاً عن شيوخه، ولا عن أصناف المعارف وفنون العلوم التي تلقّاها ... بيد أنّنا نستطيع الحديث عن معارفه من خلال تدريسه لتلامذته؛ ويتلخّص ذلك في نبوغه في علوم اللّغة العربيّة، وعلم الأصلين . يدلّ على ذلك تدريسه مختصر خليل بفاس بعد انتقاله إليها، حتّى إنّ ابن مريم يقرّر أنّه أوّل من أدخل هذا المختصر إلى المدينة المذكورة (63) ، والتقى هناك شيخ الجماعة أبا موسى عيسى بن علاّل المصمودي فأخذ عنه (64) ، وهذا هو الأستاذ الوحيد الذي احتفظ به المترجمون لسيرته، وتنبههم بأنّه أحد شيوخه . ومن هنا يمكن القول إنّ حياة هذه الشّخصيّة يكتنفها الغموض النسبيّ؛ حتّى إنّ ابن مريم وبهد التّنبكي لم يذكر شيئاً عن تاريخ ولادته، ولا داعي إلى الحديث عن المراجع الحديثة التي هي عالة بطبّعها على المصادر القديمة الأساسيّة . غير أنّ الإجماع حاصل على أنّه كان مدرّساً

، وعلى أنه قضى حقبة من الزمان يدرس بمدرسة أبي عنان المريني بفاس، وعلى أن أشهر مادة قام بتعليمها هي ألفية ابن مالك .

ومما لا ريب فيه، أن رجلاً هذا حاله من قلة الاهتمام بسيرته، والتجاهل لشأنه؛ قد يكون خلف وراءه بعض الأعمال، أو تكون له جوانب مُشرقة، لكنّ التعقيم غطّاها، والتعقيم طمسها؛ ولو أُفُرج عن ها لأضأت لنا سبل البحث، وزودتنا بصور عن شخصيته العلمية بخاصة.
من أخباره:

ذكر التنبكي نقلاً عن والده أن ابن الفتوح كان يقصد المساجد الخالية ويعمرها بقراءة القرآن العزيز، وأنه أصابه الطاعون وهو يقرأ البخاري في مكانة عند خزانة الكتب سنة 815هـ (1415م) فحمل لبيته في المدرسة حيث فاضت روحه (65) .

هذا، وأحاطت برحلته إلى المغرب أسباب يندرج بعضها تحت حكم الأسطورة، وبعضها الآخر نشير عليه ونحن على بينة من أن يجانب الصواب، لأنه يحاول التقليل من علم هذا الفقيه، والطعن في ذكائه ومعارفه، وإن كان يدلّ من ناحية أخراة على ورعه وتربيته في الفتوى، وربما التورّع عنها؛ فقد زعم الشيخ القوري [؟] أن سبب ارتحاله إلى فاس سنة 805 هـ إنما كان الدافع إليه رغبته في إثراء معارفه، وإزالة الغشاوة عن بعض الإشكالات الفقهية التي كانت تؤرقه؛ منها مسألتان جوهريتان :

. مسألة المكثّر من التّدّر (وهي في كتاب الإيمان والتّدور من المدونة)
. ومسألة من اشترى جارية بشرط أنّها تُيب فألفاها بكراً ... (66) .

ويبدو الافتراء على الشيخ أبي الفتوح جلياً، والتلفيق في الأسباب التي دعت به إلى الهجرة بيناً ... وإلا، فكيف يوصم بالعجز عن فكّ لغز هاتين المسألتين اللتين لا تحمّلان من الصّعوبة ما يجعله يقف سادراً حائراً؛ بل يُفضي به ذلك إلى أن يرتحل عن مسقط رأسه وفي ذهنه صورة إفحامه وإسكاته !.

10. أحمد بن أحمد التّدرومي :

هو أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن الأستاذ التّدرومي . نشأ بتلمسان وقرأ على عالم زمانه ابن مرزوق الحفيد (67) . وقد وصفه المترجمون لسيرته بأنه فقيه، مقرئ، عالم بالمنطق .

وعلى الرّغم من الدور الكبير الذي أدّاه في التدريس، فإنّه لم ينل ما يليق به من عناية، وعمّطه المؤرّخون حقّه، فأشاروا إليه في استحياء وتقليل، ومضّوا غاصّين الطّرف عن مزاياه وتفانيه في إبداء جحافل ظلام الجهل .

ويفهم من المعلومات التّرة المستقاة عنه أنّه كان مشهوداً له بالعلم وسعة الاطلاع، فقد تصدر في القاهرة للإقراء، ولُقّب هناك بشهاب الدّين (68) .

كان ما يزال على قيد الحياة سنة 830 هـ (1427 م) .

مؤلفاته :

. كفاية العمل (عبارة عن شرح الجمل للخونجي) . وهو اختصار لشرح شيخه ابن مرزوق الحفيد .

11. محمد بن مرزوق الحفيد

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني . وُلد بتلمسان ليلة الاثنين 14 ربيع الأوّل عام 766 هـ الموافق لـ : 20 ديسمبر 1364 م . تلقّى العلم على والده وعمّه ابني الخطيب ابن مرزوق، وعن الشّيخ سعيد العقباني، وعن العالم أبي إسحاق المصمودي، وأبي الحسن الأشهب الغماري، وعن الفقيه الورع أبي محمد عبد الله بن الشّريف التلمساني (69) .

وبعد أن أتمّ تعليمه في مسقط رأسه، وآنس من نفسه الرّغبة في التّغيير، وتطوير فكره أكثر، شدّ الرّحال إلى تونس حيث لقي بها الإمام ابن عرفة، وأبا العبّاس القصار. وبعد أن لبث فيها حيناً من الدّهر أثر أن يأخذ وجهته نحو مكان آخر من أقطار المغرب العربيّ، فألقى عصا التّسيار في مدينة فاس حيث تتلمذ على العالم النّحويّ (المكوذي) ، ثمّ الحافظ محمد بن مسعود الصّنهاجي الفيلاي . بيد أنّ نفسه الشّغوف بالزيادة من الكرّ في المعرفة لم تقنع بكلّ أولئك؛ بل راودته في التّنقل إلى المشرق فاستجاب لها لينزل مصر حيث أقبل على مختلف العلماء المتواجدين بها من أمثال ابن خلدون، والفيروزآبادي صاحب القاموس، والتّويري صاحب النّهاية، ومحبّ الدّين بن هشام ولد صاحب المغني، والقاضي ناصر الدّين التّنسي قبل أن يعود إلى المغرب .

حجّ سنة 790 هـ (1388 م) رفقة الإمام ابن عرفة، فلقي بمكّة المكرمة بعض العلماء وأخذ عنهم ما رآه زاداً لا بدّ منه، فروى صحيح البخاري عن ابن الصّدّيق، ثمّ قفل آتياً إلى وطنه، وحجّ للمرّة الثانية سنة 819 هـ (1416 م) فكان من حسن الصّدّف بالنّسبة له أن التقى الإمام ابن حجر العسقلاني، فمكّنه ذلك من أن يأخذ عنه معارف ضافية . وفي هذه الرّحلة الرّوحية والعلمية معاً، أجازته نخبة من علماء الأندلس؛ منهم: محمّد بن جزّي، وابن الخشّاب، وأبو عبد الله القيحاوي، والحافظ بن علاّق، وغيرهم .

نال هذا الأديب الفقيه شهرة عريضة نتيجة عمله الدّؤوب، وتبحّره الواسع في صنوف المعرفة، فصار يُدعى شيخ الإسلام وعالم الدّنيا (70) .

توفي يوم الخميس عصر رابع عشر شعبان من سنة 842 هـ (30 يناير 1439 م) . وصلي عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة، وحضر جنازته السلطان فمن دونه، وكان آخر بيت شمع منه عند موته - رحمه الله - (البسيط) :

إِنَّ كَانَ سَفْكَ دَمِي أَقْصَى مَرَادِكُمْ فَمَا غَلَتْ نَظْرَةٌ مِنْكُمْ بِسَفْكَ دَمِي (⁷¹)

تلامذته:

قد نجانب الصّواب إذا حاولنا إحصاء تلاميذ هذا العالم الجليل؛ ولذلك، فإنّ ما نذكره من أسماء تلامذته هو عبارة عن تمثيل لا شمول، فقد تلقى العلم عنه كلّ من الشّيخ عبد الرحمن الثّعالي، وقاضي الجماعة عمر القلشاني، والإمام أبي عبد الله محمد بن العبّاس، والعلامة نصر الزّواوي، والشّيخ حسن أبركان، والشّيخ أبي البركات الغماري، والإمام أبي الفضل المشدّالي، وقاضي الجماعة بغرناطة أبي العبّاس بن أبي يحيى الشّريف، وأخيه أبي الفرج، والشّيخ إبراهيم بن فائد الزّواوي، وأبي العبّاس أحمد بن عبد الرحمن النّدرومي، والعلامة عليّ بن ثابت، وولده ابن مرزوق الكفيف، والشّهاب ابن كحيل التّجاني، والعلامة أحمد بن يونس القسنطيني، والحسن القلصادي، والحافظ التّنسي التلمساني، والإمام ابن زكري، وهلمّ جرّاً ...

مؤلفاته:

أولاً : المؤلّفات التي أتمّها في حياته:

أ . التّفسير:

. تفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء .

ب . الفقه والعقيدة:

. الرّوضة (رجزان في علم الحديث الكبير جمع فيه بين ألفيّ ابن ليون والعراقي) .

. الحديقة (اختصار الرّوضة) .

. المقنّع الشّافي (أرجوزة في الميقات في 1700 بيت) .

. الدّليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرّومي .

. النّصح الخالص في الرّدّ على مدّعي رتبة الكمال النّاقص (في سبعة كراريس ألفه في الرّدّ

على عصره وبلديه قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصّوفيّة لما صدّق العقباني صنيعهم، وخالفه

ابن مرزوق) .

. مختصر الحاوي في الفتاوي (لابن عبد التّور التّونسي) .

. الرّوض البهيّج في مسائل الخليج .

. أنواع الدّراري في مكرّرات البخاري .

- . أرجوزة نظم تلخيص المفتاح .
- . أرجوزة نظم تلخيص ابن البناء .
- . عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلم التقليد .
- . الآيات الواضحات في وجه دلائل المعجزات .
- . إسماع الصّم في إثبات الشرف من الأمّ .
- . شرح ابن الحاجب الفرعيّ .
- . شرح التسهيل .
- ج. كتب النحو والقواعد :
- . المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السّراج (في كراس ونصف : أجاب فيه ابن السّراج عن مسائل نحوية ومنطقية) .
- . أرجوزة في اختصار ألفية ابن مالك .
- د. في المنطق:
- . أرجوزة نظم جمل الخونجي .
- . نهاية الأمل في شرح كتاب الجمل (شرح لجمل الخونجي) .
- هـ. في الأدب والنقد :
- . إظهار صدق المودة في شرح قصيدة البردة .
- . الاستيعاب لما فيها (البردة) من البيان والإعراب .
- . المفاتيح القرطاسية في شرح الشّقرطيسية .
- . المفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية .
- ثانياً: مؤلفات في فنون مختلفة:
- . اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة (عبارة عن أجوبة لمسائل في فنون العلم وردت عليه من عالم قفصة العلامة أبي يحيى ابن عقيبة فأجاب عنها) .
- ثالثاً: مؤلفات لم تتم :
- . المتجر الرّيح والسّعي الرّيح والترحّب الفسيح في شرح الجامع الصّحيح (صحيح البخاري) .
- . روضة الأريب في شرح التهذيب .
- . المنزع النبيل في شرح مختصر خليل (شرح منه كتاب الطّهارة في مجلدين / ومن الأقضية إلى آخره في سفرين .

72 . إيضاح المسالك على ألفية ابن مالك (انتهى إلى اسم الإشارة أو الموصول ... في مجلدين)

وقفة تأمل عند هذه المؤلفات :

ماذا يقول المتنزه بين خمائل هذه الروضة الفكرية يصله أريج بعيد من أشجارها المورقة؟ ويعطر شمه ريًا فواكهها المختلفة، فيحاول أن يلتذ بطعمها وينتشق بعطرها، ولكنه لا يلقي إزاءه غير الآثار التي تفضي إليها فيبذل قصارى جهوده للحاق بها، فيغيبه السبر والسرى، وينهكه البحث والتفتيش؛ ثم لا يحصل على أكثر من سراب، وعندئذ، تحتّر جوانحه، وترتعش حناياه، فيكبت حزنه وانفعاله في وليجته؛ آملاً أن تُتاح له فرصة الاستمتاع بجمال هذه الروضة والتفويؤ بيستانها يوماً ! .

ومن حسن الطالع أن بعض هذه الآثار قد استطاع أن يتصدى لأعاصير الزمن مثل شجرة السرو الرتقاء التي تتحدّى العواصف الهوجاء ! فقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي أن ثمة وجوداً لبعضها في أماكن مختلفة ؛ قال : « فمن ذلك وهو ما وقفت عليه بنفسي : جزآن من شرح البخاري كلاهما كان موجوداً بمكتبة الجامع الجديد، وهما بخط المؤلف، ثم فقد الجزء الأول منهما وبقي الثاني ! . وبعد مدة، وقفت على نسخة من الجزء الأول بنفس المكان، وهي بخط مغاير لخط الجزء الثاني ، وأجمعنا على أنها بخط الثعالبي ...؟ ولا يزال الجزآن بخزانة الجامع الجديد تحت عدد 143 و 443 ، وهذا هو المسمى ب : « المتجر الزيج، والمسعى الزيج، والمرحب الفسيح، والوجه الصبيح، والخلق السميع، في شرح الجامع الصحيح » ... وبها كتاب « إظهار صدق المودة » : توج .د من ه نسخ متعددة بمكتبات أسطنبول الشهيرة، و « المفاتيح الدوقية لحلّ الأقفال واستخراج خبايا الخرجية في علم العروض والقوافي » . وهي بمكتبتنا الخاصة . وكتاب « إسماع الصمّ في إثبات الشرف من جهة (قبل) الأم » منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم : 2067 ... » (73) .

آراء الآخرين فيه :

وصفه ابن مريم فقال :

« الإمام المشهور العلامة الحجة الحافظ (...) الشيخ النبيه (...) الفقيه الأصولي المفسر المحدث الحافظ المسند الترواية الأستاذ المقرئ المجدّد النحوي اللغوي البياني العروضي الصوفي الأواب (...) الآخذ من كلّ فنّ بأوفر نصيب، الراعي في كلّ فنّ مرعاه الخصيب (...) فارس الكراسي والمنابر (...) شيخ الإسلام وإمام المسلمين ومُفتي الأنام الذي له القدم الراسخ في كلّ مقام ضيق ... » (74) . وقال فيه تلميذه أبو الفرج بن أبي يحيى الشريف :

« هو شيخنا الإمام العالم العَلَم جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظاً وفهماً وتحقيقاً راسخ القدم، رافع لواء الإمامة بين الأمم، ناصر الدين بلسانه وبيانه وبالعلم (...) حجة الله على العلم والعمل،

جامع بين الشريعة والحقيقة (...) الشيخ الإمام (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد) اتصلت به فأويث منه إلى رتبة ذات قرارٍ ومعين، فقصرت توجّهي عليه، فأنزلي . أعلى الله قدره . منزلة ولده رعاية للذم، وحفظاً على الودّ الموروث من القدم، فأفادني من بحار علومه ما تقصر عنه العبارة، ويكّلّ دونه القلم، فقرأت عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث ، وصحيح البخاري بقراءته وقراءة غيره مراراً، وصحيح مسلم كذلك، وثنى الترمذي وأبي داود بقراءتي، والموطأ سمعاً وتفقهاً، والعمدة من الحديث وأرجوزته الصغرى (...) ومن العربية نصف المربع، وجميع كتاب سيبويه كذلك، وألفيّة ابن مالك، وأوائل شرح الإيضاح لابن أبي الربيع، وبعض المغني لابن هشام (...) وفي القراءات قصيدة الشاطبي تفقهاً ... »⁽⁷⁵⁾ .

وأشاد بعلمه وسعة معارفه تلميذه الإمام أبو زيد الثعالبي فقال :
« وقديماً علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله بن مرزوق فأقام بها وأخذت عنه كثيراً وسمعت جميع الموطأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر بن شيخنا محمد القلشاني، وختمت عليه أربعينيات النّووي قرأتها عليه في منزله قراءة تفهّم، فكان كلما قرأت عليه حديثاً يغلوه خشوع وخضوع، ثمّ أخذ في البكاء، فلم أنزل أقلاماً وهو يبكي إلى أن ختمت الكتاب (رحمه الله تعالى) ... »⁽⁷⁶⁾ .
ووصفه أوصافاً مختلفة في مكان آخر تصبّ كلّها في الإشادة بسعة علمه، وعلو منزلته، وطول باعه في مختلف فنون المعرفة، وصنوف الثقافة ...
وقال الإمام المازوني عنه في أول نوازه:
« هو شيخنا الإمام الحافظ بقيّة النّظار والمجاهدين، ذو التّأليف العجيبة، والفوائد الغريبة، مستوفي المطالب والحقوق »⁽⁷⁷⁾ .

وتحدّث عنه تلميذه الحافظ أبو عبد الله التنسي بعد ذكره قصّة (مالك) أنّه سُئل عن أربعين مسألة فقال في ستّ وثلاثين: لا أدري . قال التنسي:
« ولم نرَ فيمن أدركنا من شيوخنا من تمرّن على هذه الخصلة الشريفة، وكثر استعماها غير شيخنا الإمام العلامة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق . »⁽⁷⁸⁾ .
وقال عنه الشيخ أبو الحسن القلصادي في رحلته:

« أدركت بتلمسان كثيراً من الصّالحاء والعباد والعلماء والزّهّاد، وأولاهم بالذكّر والتّقدير الشيخ الفقيه الإمام العلامة الكبير شيخنا وبركتنا أبو عبد الله ابن مرزوق العجيسي . رضي الله عنه . (...) وكانت أوقاته كلّها معمورة بالطّاعة ليلًا ونهاراً من صلاة وقراءة قرآن وتدرّس علم وفُتيا وتصنيف (...) فقرأت عليه . رضي الله عنه . بعض كتبه في الفرائض، وأواخر إيضاح الفارسي، وشيئاً من شرح التسهيل، وحضرت عليه إعراب القرآن، وصحيح البخاري، وتسهيل ابن مالك، والألفيّة، والكافية ... »⁽⁷⁹⁾ .

من خلال آراء تلامذته الذين هم في الآن ذاته فطاحلة علم، ونوابغ فكر، يتجلى أنّ هذا العالم الأستاذ قليلاً ما يوجد الزمان بمثله، ويسمح بظهوره؛ فاستحقّ بذلك قول الشاعر:

حَلَفَ الزَّمانَ لِيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ ***

حَنَنْتُ يَمِينِكَ يَا زَمَانُ فَكُفِّرْ

على أنّ ما يؤسّف له ويُحسّر عليه، هو ضياع معظم آثاره التي سبق الحديث عنها، ولو تأتّى لنا الاحتفاظ بما لأُتِيح لنا أن نؤسّس للفكر الجزائري القديم بكلّ موضوعيّة، ولاسيّما أنّ ثقافة هذا الفقيه كانت موسوعيّة .

12 . أحمد ابن زاغو:

-) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو المغراوي: وُلد بتلمسان زُهاء سنة 782 هـ (1442 م) وتلقّى دراسته الأولى على يد سعيد العقباني وأبي يحيى الشّريف وغيرهما .
- عُرف منذ نعومة أظافره بالذكاء الحارق، والسّبق على أقرانه في الدّرس، حيث نَبَغَ في فنون المعرفة من مثل الحديث والأصول والمنطق .
- تولّى التدريس فتخرّج على يده جماعة من العلماء الأفاضل أمثال: يحيى بن بدير، ويحيى المازوني، والحافظ التّنسي، وابن زكري، وأبي الحسن القلصادي...
-) تُوفيّ يوم الخميس وقت العصر 14 ربيع الأوّل من عام 845 هـ (1494 م) .

مؤلفاته:

. مقدّمة في التّفسير .

. تفسير الفاتحة.

. منتهى التّوضيح في علم الفرائض .

. التّليخيص لوالده .

. أقضية مختصر خليل لآخره.

. ابن الحاجب الفرعيّ ...

آراء الآخرين فيه:

وصّفه ابن مريم بالإمام العالم الفاضل الوليّ الصّالح الصّوّفيّ الزّاهد العلامة المحقّق المتقنّ النَّاسِك العابد (80) .

وأشادَ به تلميذه الشّيخ أبو الحسن القلصادي؛ فقال:

« شيخنا وبركتنا الفقيه الإمام المصنّف المدّرس المؤلّف أعلم النَّاس في وقته بالتفسير، وأفصحهم ، فاق نظرائه وأقرانه في دلائل السّبل والمسالك، في سبق في الحديث، والأصول والمنطق، وقدم راسخة في التّصوّف مع الذّوق السّليم، والفهم المستقيم، وبه يُضرب المثل في الزّهد والعبادة (...) أكرمه المولى بقراءة القرآن، وشرّفه بملازمة قراءة العلم والتصنيف والتدريس والتأليف (...) فصيّرتي ك بعض أولاده، وأنزلي منزلة أصدقائه، فقرأت عليه صحيح البخاري كلّ، ومن أوّل مُسلم إلى أثناء الوصايا (...) ولزمته مع الجماعة في المدرسة اليعقوبية للتفسير والحديث والفقه شتاءً، والأصول والعربية والبيان والحساب والفرائض والهندسة صيفاً، وفي الخميس والجمعة التّصوّف وتصحيح تأليفه (...) وأنشدني يوم الجمعة (الوافر):

تمتّع من شميم عرارٍ بنجدٍ

فما بعد العشيّة من عرار

فلم يشهد بعدها جمعة أخرى. وآخر ما قرئ عليه كتاب: لطائف المثنى، ويشير إلينا بأحوال تدلّ على موته، وكان يتأهب لذلك...» (81).

ويروي ابن مريم أنّ هذا الشيخ توسّم الفهم والذكاء في الشيخ ابن زكري الطي كان يومئذ طفلاً يشتغل في النسيج؛ فسأله :

. أين أبوك؟

فقال له :

. مات .

. وأمك؟

فقال له:

. حيّة .

. وما أجرتك في الطّراز؟

قال له:

. نصف دينار في الشّهر .

قال له:

. أنا أعطيك نصف دينار في كلّ شهر، وارجع يا ولدي تقرأ، وسيكون لك شأن (82) .

13. قاسم بن سعيد العقباني:

هذه دوحة أخرى من روضة العلم والمعرفة؛ هي روضة اسرة العقباني، حيث إنّ (قاسم) هذا يتوسّط هذه الأيكة المثقلة بالثّمار، الملئى بالينع والاحضرار، الحانية على قاصدها بالفياءة والظلال؛ هذا العالم هو ووالده

سعيد (. 811 هـ) (⁸³) ، وولّده أحمد (. 840 هـ) (⁸⁴) ، وإبراهيم (. 880 هـ) (⁸⁵) ، ثمّ حفيده القاضي محمد (. 871 هـ) (⁸⁶) كلّهم أصحاب شهرة في العلم، وذوو سعة في الفضل، وأهل تقدم وتبجيل، أسهموا جميعاً في بث العلم ونشر الخلق الفاضل، وضحووا من أجل ازدهار الحركة الفكرية في المغرب الأوسط على مدى نحو قرنين من الزمان .

اسمه ونسبه:

هو أبو الفضل ، وأبو القاسم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، توسّط عائلة تنتمي إلى مجال العلم والمعرفة، أو هو « ملحق الأحماد بالأجداد » كما يصفه ابن مريم (⁸⁷) . وُلد بتلمسان سنة 768 هـ (1368 م) أخذ عن والده الإمام أبي عثمان وغيره، واجتهد في التحصيل، وتعب في الدرس حتّى بلغ درجة الاجتهاد .

غادر مسقط رأسه قاصداً تأدية فريضة الحج عام 830 هـ ، وفي هذه الرحلة حضر بمصر إملاء ابن حجر العسقلاني الذي استجازه فأجازه . وبعد عودته من البقاع المقدسة ولي بتلمسان خطة القضاء، وعكف على التدريس ناصحاً ناشئة العلم، وباذلاً قُصارى جهده في سبيل تخريج مثقفين لهم مستوى تمثيل الثقافة العربية الإسلامية، فبلغ هدفه، وحقق مأربه، حيث تحرّج على يده جيل من النّبغاء سجّلوا تاريخ أستاذهم وأشادوا بمواقفه، واعترفوا بتبحر معارفه، وتنوّع نظريّاته، وسداد آرائه وأحكامه، حيث ظلّ يدرس الأحكام والفرائض مثل « مختصر خليل » ، و « مختصر المدوّنة » لابن أبي زيد، و « حكم ابن عطاء الله » ، و « المختصر في أصول الدّين » .

أخذ عنه جماعة منهم : أبو البركات النّالي، وولده أبو القاسم العقباني، وحفيده محمد بن أحمد، والعلامة ابن زكري، والكفيف ابن مرزوق، وأبو العباس الونشريسي ... وغيرهم .
تُوفي في ذي القعدة عام 854 هـ (1450 م) وصلي عليه في الجامع الأعظم، ودُفن قرب الشيخ ابن مرزوق (⁸⁸) .
مؤلفاته:

. تعليق على ابن الحاجب.

. أَرْجُوزة في التّصوّف .

آراء الآخرين فيه :

أثنى عليه كثيرون ، فقال عنه الحافظ التّنسي:

« شيخنا الإمام العلامة وحيد دهره، وفريد عصره » (⁸⁹) .

وقال يحيى المازوني يقرّضه:

« شيخنا شيخ الإسلام، علّم الأعلام، العارف بالقواعد والمباني، أبو الفضل

العقباني⁽⁹⁰⁾ »

وقال القلصادي عنه في رحلته:

« شيخنا وبركتنا الفقيه الإمام المعمر، ملحق الأصاغر بالأكابر، العديم النظير والأقران، مُرتقي درجة الاجتهاد بالدليل والبلازهان (...) انفردَ بفَيِّ المعقول والمنقول، واتَّحدَ في علم اللسان والبيان⁽⁹¹⁾. »

14. محمد بن أحمد المغيلي:

هو محمد بن أحمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلّاب التلمسانيّ. وشأن هذا العالم هو شأن بعض من سبقه من الذين تناولنا جانباً من سيرهم، وما قلناه هناك لا نكرهه هنا، ونعني به غياب المرجعية التي تضيء درب حياته. ولذلك لا نرجم بالغيب، فنسب له ما ليس موجوداً فيه، بل نقتصر على إيراد ما انفلت من عقد التسيان عنه؛ ومن هذه الفلتات ما وصفه به ابن مريم الذي قال: « الفقيه العالم أحد شيوخ أبي العباس الونشريسي والإمام السنوسي »⁽⁹²⁾.

وأثنى عليه الإمام السنوسي نفسه فقال: « إنّه حافظ لمسائل الفقه »⁽⁹³⁾.

وبالإضافة إلى التدريس الذي كان قائماً عليه، فإنّه اشتغل بالتأليف، وترك بضعة أبحاث في الفقه

وأصوله، وفي الفتاوي التي نقل بعضها المازوني في « التّوازل »، والونشريسي في « المعيار ».

تولّى قضاء مازونة؛ وله آراء في هذا المجال؛ منها: « إذا ملك اليتيم أمره، وطلب محاسبة وليّه، أو طلبّه الوصيّ بفوراطلاق الوصيّ له لم ينفع ذلك حتّى يطول الأمر طولاً تنتفي به عنه التّهمة من أن يُقال: إنّما أطلقه ليبرّئه »⁽⁹⁴⁾.

تُوفي عام 875هـ (1470م).

مؤلفاته:

. الرّائق في تدريب النّاشئ من القضاة، وأهل الوثائق.

ورّد فيه قوله:

« إنّ أوصى بثلثه لسارق، فليس للقاضي عزله لأنّ ربّه يوصي به حيث شاء، لكنّ يلزمه

الإشهاد على التّنفيد لئلاّ يخون المنتخب الذي جرى به العمل عندنا كشفهم عن تنفيذ ما جعل لهم، وإن كان مأموناً وهو أخوط »⁽⁹⁵⁾.

15. أحمد بن زكري:

هو أحمد بن محمد بن زكري المازوني التلمسانيّ.

نشأ بتلمسان، ورضع من ينابيع المعرفة في رياضها وجنانها، وكان أول عهده بالحياة يتعاطى حرفة الحياكة بسبب يُثمه وعَوَزه، وصادف أن العالم (ابن زاغو) دفعَ لصاحب المنسج غزلاً ينسجه له، ثم إن هذا الرجل احتاج بعد ذلك إلى المزيد من الغزل لإكمال التسيج، فبعث به إلى هذا الشيخ . وهو صبي . طالباً منه ما أمره به سيّده، فألفاه يدرّس ويقرّر قول ابن الحاجب الفرعي في مسألة ثوب الحرير والتّجس؛ وهو قوله: « فإن اجتمعوا فالمشهور ابن القاسم بالحرير، وأصبغ بالتّجس، فخرّج في الجميع قولين، فقرّر مسألة التّخريج للطلّبة فلم يفهموها» (96) .

لكنّ ابن زكري اختطف الجواب منهم وأعرب للشيخ ابن زاغو عن حقيقتها ، فقال له: بارك الله فيك يا ولدي (97) .

وهكذا عرفت حياة ابن زكري مرحلة حاسمة، حيث إنّه ترك منذ تلك الواقعة الصّناعة النّسيجية وأقبل على جداول العلم يكرّع من صفائها تحت رعاية الشيخ الرّحيم، والعالم الورع الذي لم يكن يبحث عن المال، أو يطمع في توفير ربح من وراء تدريسه لطلّبه؛ بل إنّه أفنى ماله في سبيل نشر العلم ونجدة من كان في حاجة إليه من هؤلاء المتعلّمين، وهي خللٌ قلّما يجود الزّمان بمثلها .

شيوخه:

تلقى أول الغيث على العالم الزّاهد (ابن زاغو) ، فلمّا تُوفّي، انتقل للأخذ عن علماء آخرين من أمثال محمد بن العبّاس في العبّاد، يغدو إليه من وسط المدينة كلّ يوم صباحاً، ويروح مساءً ... لاحظ هذا الأستاذ أن تلميذه (ابن زكري) يقاوم الضّنك وهو يصّرع، ويتصدّى للفاقة وهي تحنقه، ولكنّه كان أبيّ النفس، قويّ الشّكيمة، شديد الإقبال على العلم لا يبالي بما يلقى من عنت وشطّط في ذلك. وهذا الموقف من التّلميذ هو الذي أفضى بأستاذه إلى أن يتدخّل له عند السّلطان طالباً منه أن يمنحه بيتاً في المدرسة، فكتب له بيتاً فيها برّيته وفرشه وسمنه وزيته ولحمه وفحمه وجميع ما يمّونه (98) .

يُعَدّ ابن زكري عالم زمانه، وآية ذلك أنّه درّس وأفتى وأمّ القوم في المساجد. ولشّدة حرصه على التّقرير في التّبليغ والتّدرّيس، كان يكرّر المسألة الواحدة في (اللّغة / الفقه) ثلاثة أيّام أو أربعة حتّى يدرك فحواها، ويفقه مكنونها الخاصّ والعام .

تلامذته:

كان له تلاميذ عديدون؛ اشتهر منهم الإمام أحمد زروق (. 899هـ) وابن مرزوقة حفيد الحفيد، وأحمد بن الحاج المناوي أصلاً، الوزنيدي داراً .

تُوفّي في صفر عام 899 هـ (1493م) وقبره بروضة الشيخ السنوسي، وقد سُمّيت الآن ثانويّة باسمه في مدينة تلمسان، كما يحمل أحد مساجد المدينة المذكورة اسمه تخليداً لذكراه، وتكرّماً لعلمه .

مؤلّفاته:

. مسائل القضاء والفُتيا .

. بُغية الطالب (عبارة عن شرح لعقيدة ابن الحاجب) .

. المنظومة الكبرى في علم الكلام (أكثر من 1500 بيت) عنونها: « محصل المقاصد ممّا به تُعتبر العقائد » .

. شرح الورقات : لإمام الحرمين أبي المعالي (في أصول الفقه) .

ونقل عنه الونشريسي فتاوى كثيرة (⁹⁹) .

16. الحافظ التنسي:

هو محمد بن عبد الله بن عبد الجليل المعروف بالحافظ التنسي . وُلد بمدينة تنس نحو سنة 820 هـ (1417 م) ، لكنّه انتقل إلى تلمسان واستقرّ بها، بل وصار مدرّساً من مدرّسيها، وعَلِمًا من أعلامها، ونابعة في مختلف العلوم العقلية والنقلية، ومشهوراً بالفقه والإفتاء بخاصّة (¹⁰⁰) .
شيوخه:

لقد تلقّى هذا العالم الجليل تعليمه على أيدي العلماء: قاسم العقباني، وأبي الفضل محمد بن الإمام، والإمام الأصوليّ محمد بن أحمد بن النّجار التلمساني (. 846 هـ / 1442 م) ، وإبراهيم التّازي، والإمام ابن العباس، والشاعر إبراهيم التّازي (الناظم البليغ الورع الزاهد، وصاحب القصائد الرائقة الأنيقة في مدح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم) ، توفيّ سنة 866 هـ (1462 م) (¹⁰¹) .
تلامذته:

كان مدرّساً مؤهوباً حيث استطاع أن يؤثّر بعلمه في طلبته الذين نبغ كثير منهم من أمثال أحمد البرنسي الشهير بزروق (. 890 هـ / 1485 م) ومحمد بن سعد (. 901 هـ / 1496 م) وبلقاسم الزّاوي (922 هـ / 1516 م) ومحمد بن العباس الصّغير (1011 هـ / 1602 م) والشيخ حفيد الحفيد ابن مرزوق المعروف بالكفيف، وأبي الفضل بن سعيد بن سعد (. 901 هـ / 1497 م) بالديار المصرية؛ وهذا العالم مشهور بكتابه « النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من المناقب » .
هذا، وشهد بعض هؤلاء التّلاميذ لأستاذهم الحافظ التنسي بالتّفوّق وسعة العلم، ووفرة المعارف مثلما قال فيه تلميذه محمد بن العباس الصّغير أدناه .

وكما ينصّ عليه (محمود بوعياذ) في تحقيقه لكتاب التنسي « نظم الدّرّ والعقيان » فإنّ المعلومات ناقصة عن هذا العالم فيما يتعلّق بأهمّ الموادّ التي تلقّاها أو التي درّسها، لكنّ الواقع يثبت أنّ أيّ مدرّس من هؤلاء قد تلقّى علوم زمانه التي كانت منتشرة، ولاسيّما إذا كان الأمر يتعلّق برجل مثل التنسي صاحب الذّكاء الوقاد، والحافظة الخارقة، حيث انعكس بعض ذلك على شخصيّته؛ فكان أحد

حفظة الحديث النبوي الشريف، والإمام الشامل بالفقه. أضف إلى ذلك اهتمامه بالأدب والتبحر فيه إلى درجة أن (الونشريسي) وصفه بالفقيه الحافظ، التاريخي، الأديب الشاعر⁽¹⁰²⁾ التحق بالرفيق الأعلى في جمادى الأولى من سنة 899 هـ (1494م).

التنسي أديباً:

تتجلى أديبة الحافظ التنسي في الجزء الثاني الذي من سفره «نظم الدرّ والعقيان»⁽¹⁰³⁾ حيث يتناول فيه أبحاثاً تتعلق الأول ببيان الشعر وفضله، وينصرف الثاني إلى التجنيس، ويعنى الثالث بالتورية وأشكالها وأنواعها، في حين، يتطرق في الجزء الرابع إلى أوجه الطباق، ويسلط الضياء في الخامس على اللفظ والمعنى، وفي السادس على العلاقة بين النحو والبلاغة، وفي السابع على الاقتباس، أو ما يُعرف في الدراسات الحديثة بالتناص؛ وهو يصل بها إلى أكثر من عشرة أنواع⁽¹⁰⁴⁾.

الحافظ التنسي ناقداً:

لم يقتصر هذا العالم الجزائري الفذّ على التعليم الذي تحدّثنا عن صفته ونوعه، وإنما تجاوزوه إلى الفهم العميق للنصوص، والقراءة المتأنية التأويلية للآراء التي سادت عصره، وهذا على الرغم من أنه اشتهر اشتهاراً واسعاً بالحديث النبوي الشريف وكثرة استيعابه له وحفظه، وعلى الرغم كذلك من اتسام أسلوبه بالنثر الديواني، لأنه اشغل كثيراً بسير الملوك والأمراء ولاسيما في كتابه (نظم الدرّ والعقيان ...). ومن الواضح أننا لا نعني هنا النقد بمفهومه الواسع، وإنما نروم البحث في بعض اللّمحات التي تدخل في باب النقد، ولو أنه أتيح لنا الاطلاع على آثار التنسي كلّها لما عدنا جانباً من تلك الجوانب التي تصبّ في هذا الاهتمام؛ وقد عثرنا على صورة لهذا النقد في كتاب أحمد المقرئ حين قال:

«قال الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان. رحمه الله تعالى. عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يعمراسن بن زيان. رحمه الله تعالى. وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله بن الخطيب كثيراً ما يوجّه إليه بالأمداح؛ ومن أحسن ما وُجّه له قصيدة سينية فائقة، وذلك عندما أحسن بتغيير سلطانه عليه، فجعلها مقدّمة بين يدي نجواه، لتمهّد له مثواه، وتحصل له المستقرّ، إذ ألجأه الأمر إلى المفرّ، فلم تساعد الأيتام، كما هو شأنها في أكثر الأعلام»⁽¹⁰⁵⁾.

ثمّ يورد قصيدة ابن الخطيب التي تبلغ 114 بيتاً مطلعها (الكامل):

أطلعن في سدّ الفروع شُموسا ***

ضحك الظلام لها، وكان عبوسا

وخاتمها:

القلب أنت لها رئيس حياتها ***

لم تُعْتَبَرَ مهما صلحت لها رئيسا (106)

لِيُثَبَّتَ رَأْيَ التَّنْسِي فِي الْآتِي :

« ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ التَّنْسِي . رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . بَعْدَ سَرْدِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَا مَعْنَاهُ : إِنَّ لِسَانَ الدِّينِ ابْنَ الْخَطِيبِ حَذَا فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ السَّيْنِيَّةِ حَذُو أَبِي تَمَامٍ فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

أَقَشِيبَ رُبْعِهِمْ أَرَاكَ دَرِيسَا ***

تَقْرِي ضِيُوفَكَ لَوْعَةً وَرَسِيْسَا (107)

وَاخْتَلَسَ كَثِيرًا مِنْ أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا « (108) .

آرَاءُ الْآخَرِينَ فِيهِ :

قَالَ فِيهِ تَلْمِيزُهُ مُحَمَّدَ بْنَ الْعَبَّاسِ الصَّغِيرِ : « لَازِمَتْ مَجْلِسُ الْفَقِيهِ الْعَالِمِ الشَّهِيرِ سَيِّدِي التَّنْسِي عَشْرَةَ أَعْوَامٍ ، وَحَضَرَتْ إِقْرَآءُهُ تَفْسِيرًا وَحَدِيثًا وَفَقْهًا وَعَرَبِيَّةً وَغَيْرَهَا » (109) .

وَوَصَفَهُ تَلْمِيزُهُ الْآخَرُ ابْنُ دَاوُدَ الْأَنْدَلُسِيِّ بِأَنَّهُ « بَقِيَّةُ الْحُقَاطِ وَقُدُوءُ الْأُدْبَاءِ » (110) .

وَأَطْرَاهُ تَلْمِيزُهُ أَحْمَدُ بْنُ دَاوُدَ الْأَنْدَلُسِيِّ فَقَالَ بَعْدَ مَا غَادَرَ تَلْمِسانَ : « الْعِلْمُ مَعَ التَّنْسِي ، وَالصَّلَاحُ مَعَ السَّنُوسِي » (111) .

مُؤَلَّفَاتُهُ :

. نَظْمُ الدَّرِّ وَالْعَقِيَانِ فِي بَيَانِ شَرَفِ بَنِي زِيَان .

. الطَّرَازُ فِي ضَبْطِ شَرْحِ الْخَرَّازِ .

. رَاحَ الْأَرْوَاحِ فِيمَا قَالَهُ الْمَوْلَى أَبُو حَمَّوٍ وَقِيلَ فِيهِ مِنَ الْأَمْدَاحِ .

. الْجَوَابُ الْمَطْوُولُ فِي قَضِيَّةِ يَهُودِ تَوَاتٍ (112) .

17 . الْمَنَاوِي الْوَزْنِيْدِي :

هُوَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَنَاوِي أَصْلًا وَنُجَارًا ، الْوَرِينْدِي مَوْلَدًا وَدَارًا عُرِفَ بِابْنِ الْحَاجِّ . قَطَنَ أَوَّلَ الْأَمْرِ مَكَانًا يُدْعَى « إِنْثَلَاثُنْ أُولَيْلِي » ثُمَّ ارْتَحَلَ إِلَى وَادِي بِيْدَرِ (113) .

تَلَقَّى مَعَارِفَهُ عَلَى أَيْدِي شَيْوْخِ أَجْلَاءَ مُخْتَلَفِي التَّخَصُّصَاتِ ، مُتَعَدِّدِي الْمَصَنَّفَاتِ . وَإِنْ لَمْ نَعْرِفْ الْكَثِيرَ عَنْهُمْ . وَمَا عَرَفْنَاهُ أَنَّهُ . رَحِمَهُ اللَّهُ . قَدْ أَخَذَ الْأَصُولَ وَالْمَنْطِقَ وَالْمَعَانِي وَالْبَيَانَ وَالْعَرَبِيَّةَ عَنِ الْعَلَامَةِ أَحْمَدَ بْنِ زَكْرِي (. 899 هـ) . لَكِنَّ الْمَوْكَّدَ أَنَّ الْآخَرِينَ انْتَفَعُوا بِعِلْمِهِ ، وَكَرَعُوا مِنْ جَدَاوِلِ مَعَارِفِهِ ، وَهُمْ كَثِيرُونَ ؛ مِنْهُمْ : الْحَاجُّ بْنُ سَعِيدٍ وَلَدَ أُخْتِهِ ، وَابْنُ عَمِّهِ ، كَمَا أَخَذَ عَنْهُ مُحَمَّدُ بْنُ بِلَالٍ الْمَدْيُونِي الْقِرَاءَاتِ السَّبْعَ ، وَالْعَرَبِيَّةَ ، وَالتَّصَوُّفَ ، وَأَخَذَ عَنْهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْيَعْقُوبِي كَتَبَ ابْنُ عَطَاءٍ اللَّهُ كُلَّهَا ، وَجَانِبًا مِنَ التَّصَوُّفِ .

عُرف عنه أنّه كان ماهراً في الحساب، وبارعاً في الشعر، وعالماً في عروضه، وهذا ما أهله للتدريس حيث كان معلماً بمدرسة سيدي أبي الحسن التنسي، وكان زاهداً في الدنيا، فنوعاً بقسمه؛ ومن شعره في هذا المعنى قوله:

رضيتُ بقسم الله ثمّ اختياره
 *** وجئتُ نفسي السعيّ حول اغتياله
 وفوضتُ أمري للذي هو عالمٌ
 بأسباب إصلاح الفتى واختباله
 وأياستُ قلبي من رجا غير ربّه ***
 * لجلب مناه أو لسلب اعتلاله
 يقيني يقيني أن أرى مُتَدَلّلاً

لغير عزيزٍ واحدٍ في جلاله
 وإني لأستحيي من الله أن أرى *
 ** لباب سواه ، سائلاً لنواله (114)

توفي قريباً من الثلاثين وتسعمئة (930 هـ) ودُفن في روضة هو وأبوه (سيدي الحاج) في بني إسماعيل (بني سميل) من جبل بيدر (115) .
 مؤلفاته:

. شرح السنينية لابن باديس .

. شرح البردة للبوصيري (جمع فيه بين شرح علي بن ثابت المتوفى سنة 577 هـ وشرح سعيد بن محمد العقباي المتوفى عام 811 هـ وشرح الحفيد ابن مرزوق المتوفى عام 842 هـ) وإن بدت له إضافة في المعنى أو في الإعراب أضافها، لكنّه . للأسف . لم يكمله .
 شعره:

لقد ترك هذا الفقيه الأديب شعراً كثيراً، بعضه يدخل في باب النظم، وبعضه الآخر يمكن أن يرقى إلى الخطاب الشعريّ . بيد أنّه لم يتح لنا الحصول على آثاره كلّها أو بعضها، ممّا يحول بيننا وبين التّقوم لفنّه.

ومن هذا الشعر أنّه مدح النّبي ﷺ بعدّة قصائد « أتى فيها بالعجب العجيب » (116) ذكر المؤرّخون لسيرته بيتاً واحداً منها؛ هو :
 ومن بعد باسم الله والحمد إذ به *** بداءة من يبغي الكمال ويطلب

وعدد أبياتها بعدد سور القرآن العظيم مثلما أخبرنا بذلك ابن مريم (¹¹⁷) . ومنها قصيدة أخرى مطوّلة كان قد بعث بها ضمن رسالة إلى أستاذه (ابن زكري) طالباً منه إجازته؛ لكنّها قصيدة من نوع النّظم فحسب، وهو ما يجعلها تندرج فنيّاً في خانة الشعر التعليمي (¹¹⁸) .

فتاواه:

لقد ترك الفقيه المناوي فتاوى متعدّدة في مجالات مختلفة؛ نورد منها واحدة فقط ، معتبرينها نموذجاً لفتاويه الأخرى ؛ فقد كتب له الفقيه الزّاهد أبو العبّاس أحمد البجائي سؤالاً هذا نصّه:

« سيدي ، رضي الله عنكم وأدام بمّنه عافيتكم، ما جوابكم في موضع كثر فيه الظلم والأشرار، وانتشر فيه الباطل والسّكر كلّ انتشار، وذللّ فيه المسلمون وعزّ فيه الكفّار، وارتفع فيه الجور والظلم، واتّضع فيه أهل المعرفة والعلم، تُمكّس فيه جلّ المبيعات على المسلمين، وأشكّل الأمر على المسترشدين، ولم يظهر من فضائله ناكر لمنكر، فلا أدري أ خَوْفاً على أنفسهم أم استهزاء بالأمر؟ ثمّ إنّ إنساناً اضطرّ إلى أخذ العلم عن علماء الوضع المذكور، وخشي على نفسه ممّا هو قبل مسطور. فهل أعزّكم الله يسوّغ له المكنث في ذلك الوضع مع عدم قدرته على تغيير المنكر إلّا قليلاً ويكون بذلك ممثلاً لأمر ربّه؟ وهل يسوّغ له الشراء من بعض المبيعات الممكّسات إن اضطرّ إلى ذلك، ويكون آمناً من الوقوع في المهالك؟ وهل يسوّغ له أخذ العلم عن علمائه، مع عدم تغييرهم لما ذُكر؟ وإقامتهم بالموضع المذكور؟ ولا يناله توبيخ من المولى سبحانه يوم النّشور؟ أم يجب عليه أن ينتقل من ذلك الموضع لغيره؛ لأنّ الرّائع حول الحمى يوشك أن يقع فيه؟

« بينوا الأمر لمن اضطرّ إليه في خاصّة نفسه، واحتاج إليه كلّ الاحتياج، فلكم الأجر التّام، والسّلام » (¹¹⁹) .

وهذا جواب العلامة المناوي حيث قال:

« الحمد لله الواجب على المؤمن المحقّق، النّاظر لنفسه نظر مشفق، أن يفرّ بدينه من الفتن، ولا يقيم إلّا في موضع تُقام فيه السنن، ولا يأخذ من علم دينه ما يحتاج إليه إلّا ممّن تظهر آثار الحشية والخضوع عليه، ويطلب ذلك في أقطار الأرض ونواحيها، بدليل [أ لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها] (¹²⁰) هذا مع الإمكان، ووجود بغيته في غير ذلك المكان. فإن تعذّر عليه ذلك، وانسدت عنه المسالك، ولم يجد موضعاً صالحاً مرضياً، ولا معلماً صالحاً مهدياً، فليقيم هناك صابراً صبراً جميلاً، ويكون من المستضعفين من الرّجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً (¹²¹) . وليقلّ كما قالوا - إن لم يجد مُعيناً على الدّين ولا ظهيراً . [ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظّالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً] (¹²²) . ويأخذ من العلم ما يُضطرّ إليه من كلّ متصدّر للأخذ عنه. فربّ حامل علم أهدى ممّن هو أعلم منه. وقد يعالج المريض المؤمن بدواء الطّبيب الكافر، وقد

يؤيد الله الدين بالرجل الفاجر، ويشتري من المبيعات ما يُحتاج إليه ليساً وطُعماً، ولكن لا يَغشَم المعيشة غَشْماً، وليُعْطِ الورع حقّه، ويستعمل في ذلك اجتهاده ورفقه، ويتجنّب شراء المأخوذ في المكس من غاصبه، ويشترى ممّا بقي على ملك صاحبه، مع مراعاة قواعد الشريعة المقررة، ومسائل الفقه المسطرة، والوقوف في حدّ الضرورة، وعدم الاسترسال في الشّهوات المباحات، فضلاً عن المحظورات . فإن اقتصر على ضرورياته لم يخف على دينه اختلالاً، إذ لو كانت الدنيا جيفة لكان قوت المومن منها حلالاً، وقد أحسن الفقيه الكلاعي حيث يقول في هذا المساغ (الطويل):

وطاعة من إليهم الأمر فالزم *** وإن جاروا، وكانوا مسلمينا
وإن كفروا كفّر بني عبدي **

* فلا تسكن ديار الكافرينا
فرتما يقوم الحق يوماً ***

فتهللك في غمار الهالكينا
تجد في الأرض متسعاً فهاجر *

** إلى دار الهداة الواصلينا
والله سبحانه أعلم، وبه التوفيق . انتهى « (123) .

كلمة ختامية:

إنّ ما ذكرناه من أسماء لا يمثل في واقع الأمر إلاّ ذرة من رمل، وقطرة من بحر؛ ذلك أنّ علماء تلمسان ومدّرسيهيها لا يُحصَوْنَ عدّاً، وهم ما زالوا مبثوثين في مظانّ عصماء منيعة: بعضها تحت رحمة أناس بلغ بهم حرصهم عليها إلى درجة منعها من التنقّس خارج بيوتاتهم وصناديقهم فخنقوها بذلك وأبادوها، وبعضها الآخر مخبوء تحت زكام الأغبرة والأثرية والإهمال، لا يدري أصحابه ما قيمته، وصنّف ثالث نائم شبه منسيّ في المكتبات العالمية والجزائرية المنظّمة، وهذا الصّنف الأخير هو الذي يمكن أن يحقّق ويُنتشل من الضياع على الأقلّ .

ولعلّ الأيّام المقبلة كفيلة بالكشف عن كثير من هذه الكنوز التي بوساطتها يستطيع الدّارسون أن يؤسّسوا للفكر الجزائريّ، ويؤرّخوا له بصدق وأمانة، من غير التّغاضي عن حلقات هامة ظلّت معيّبة ضائعة .

هوامش وإحالات

¹ . تنظر " المقدمة " ط . الدار التونسية للنشر / المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر ط 1 / 1984 . ج 2 ص 526 .

2. أوردها المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي مرتبةً (تاريخياً) على النحو الآتي: طنبنة، تيهرت، المسيلة، القلعة الحمادية، بجاية، وهران، تنس، بسكرة، ورجلة، وأخيراً تلمسان التي فيها كان استقرار العلوم النظرية والتطبيقية. ينظر: تاريخ الجزائر العام. دار الثقافة. بيروت ط 4 / 1400 هـ (1980 م) ج 2 ص 248 .
3. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. مكتبة النهضة الجزائرية. الجزائر، د. ط / 1963 م ج 2 ص 67 .
4. عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية. تحقيق: رابح بونار. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر، د. ط / 1970 م. ص 37 .
5. كَفَرُ يَكْفُرُ كَفْرًا وَكُفْرًا الشَّيْءُ : سَتَرَهُ وَعَطَاهُ .
6. أَصْبَى الشَّيْءُ فَلَانًا: شَاقَهُ وَاسْتَهْوَاهُ فَحَنَّ إِلَيْهِ / وكذلك : تصبى .
7. بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. تحقيق: د. عبد الحميد حاجيات. ط. المكتبة الوطنية. الجزائر، د. ط / 1400 هـ (1980 م) ج 1 ص 86 .
8. تاريخ ابن خلدون. ط. بولاق 1284 هـ. ج 7 ص 78 .
- * ذكر مبارك الميلي (تاريخ الجزائر) أنّ أول مدرسة أُسست في الإسلام كانت بنيسبور أواخر القرن الرابع الهجري، وأنّ أول من عمّم بناء المدارس إنّما هو الوزير نظام الملك المتوفى سنة 485 هـ
9. المِشْنَد الصَّحِيح الحسن في محاسن مولانا أبي الحسن ط. الجزائر 1401 هـ / 1981 م .
10. نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج : أحمد بابا التّنكي. منشورات كَلّية الدّعوة الإسلاميّة. طرابلس، ط 1 / 1989 م. ص 89 .
11. تنظر « المقدّمة » ط. بولاق 1274 هـ ص ص 205. 206 .
12. عن تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي 2 : 248 .
13. البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان : ابن مریم التلمساني. تحقيق: محمد بن أبي شنب. ط. المطبعة الثّعلبيّة. الجزائر د. ط 1326 هـ (1908 م) . ص 216 .
14. هذا الجمع لا وجود له في المعاجم والقواميس اللّغويّة العربيّة .
15. عن تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي 2 : 384 .
16. عنوان الدّراية ، ص ص 246. 247 .
17. تاريخ الجزائر العام 2 : 249 .
18. باقة السّوسان في التعريف بحاضرة تلمسان. ديوان المطبوعات الجامعيّة. الجزائر 1995 م. ص ص 397. 400 .
19. تاريخ الجزائر العام 2 : 249 .
20. يراجع: تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي 2 : 249 .
21. نَظْم الدّردَر والعُثبان. تحقيق: محمود بوعباد، ص ص 140. 141 (وهذا السّلطان هو الذي شَيّد الصّنْهَرِيح الأعظم) . راجع : م . ن . ص
- 140 (شَيّد زهاء 716 و 728 هـ) طوله 220م وعرضه 150م في عمق 03 م .
22. تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي 2 : 255 .
23. البستان : 25 ، 33 ، 35 ، 37 .
24. محمد بن رمضان شاوش . يُراجع : م . س . ص 339 .
25. لنسهيل الرّجوع إلى هؤلاء الأعلام ، وتعميماً للفائدة؛ فقد رتّبناهم ترتيباً تاريخيّاً تصاعديّاً .
26. يراجع البستان ، ص ص 67. 68 / نيل ابتهاج ، ص 38 .
27. عن : نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج ، ص 39 .
28. يراجع كتاب : « تلمسان عبر العصور » : محمد بن عمرو الطّمار . المؤسّسة الوطنيّة للكتاب. الجزائر 1984 م ، ص 95 / نيل الابتهاج ، ص 295 .
29. عنوان الدّراية ، ص ص 91. 92 .
- * المشدّالي (يفتح الميم والشّين المعجمة وتشديد الدّال المهمّلة) : نسبة إلى مشدّالة (إحدى قرى بجاية) مثلما حدّد عبد الرحمن الجيلالي . م . س .
- 2 : 265 .

30. يراجع : نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب . أحمد المقرّي ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس . دار صادر بيروت د . ط / 1408 هـ (1988 م) ج 5 ص 223 .
31. يراجع : نيل الابتهاج ن ص 350 .
32. سورة العنكبوت . جزء من الآية 02 .
33. كلمة « المقرّي » هنا تبدو حشوّاً ، والأمر في الواقع هو كذلك ، لأنّ المقرّي أراد أن يدعم شرح المشدّالي ، فاستشهد بجزء من الآية الكريمة ، يدلّ على ذلك إلصاقه اسمه بهذه الآية ؛ وهي طريقة في الأسلوب القديم لا تخلو منها معظم المدوّنات والموسوعات ، ولاسيّما في الفقه والمنطق ونحوهما .
34. عن : << نيل الابتهاج >> ، ص 351 .
35. ينظر : « جدوّة الاقتباس » : ابن القاضي المكتاسي . دار المنصور للطباعة والوراقة . الترابط د . ط / 1974م ، ج 1 ص 97 / البستان ، ص ص 64.63 .
36. عن : نيل الابتهاج . ص 245 .
37. « برّشك » : اسم لمدينة كانت معروفة في القرون الوسطى ، وكانت تقع على شاطئ البحر بين شرشال وتنس ، ولكن لم يبق لها أي أثر ، وهي مسقط رأس الفقيهين أبي زيد عبد الرحمن ، وأبي موسى عيسى أبي الإمام محمد . ينظر : نظم الدّرّ والعقيان : التي . تحقيق : محمود بوعباد ، ص 284 .
38. عن : م . ن . ص 245 / يُراجع : تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي 2 : 164 .
39. لم يبق من هذه المدرسة أي أثر ؛ بيد أنّ المسجد بمنارته الذي شُيّد ملتصقاً بالمدرسة ما يبرح شاهداً ، ويُعرف اليوم بجامع (سيّدي أولاد ليمان) وهو يوجد حالياً مقابل (باب سيّدي بوجمعة) .
40. نسبةً إلى « أُبْلَة » : اسم جبل يقرب غرناطة .
41. عن « البستان » ، ص 216 .
42. البستان : 216 .
43. نيل الابتهاج : 414 .
44. يراجع : نفح الطّيب (5) : 217 ، 226 ، 237 ، 244 ، 248 ، 273 ، 277 ... / (6) : 172 / (7) : 133 .
45. عن : « البستان » ، ص 215 .
46. تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي 2 : 168 .
47. عن « نيل الابتهاج » : 611 .
48. يراجع : م . ن . ص 612 .
49. عن : م . ن . ص 611 / البستان : 294 / وتُنظر ترجمته في << نفح الطّيب >> 7 : 147 ، 166 ، 304 / معجم أعلام الجزائر : عادل نويهيض ، ص 196 / باقة السّوسان : 427.428 .
- * . نسبةً إلى قرية « العلويّين » الواقعة في شمال تلمسان ، والمعروفة الآن باسم : « عين الحوت » . هذا في ظاهر الانتماء ؛ أمّا في باطنه ، فإنّه يُقصد به الانتماء البعيد إلى الإمام عليّ (كرم الله وجهه) .
50. ورد هذا النّسب كاملاً في : البستان ، ص 164 / وتُنظر ترجمته في كلّ من : نيل الابتهاج : 430.445 / تاريخ الجزائر العام 2 : 209 / معجم أعلام الجزائر : 139 / باقة السّوسان : 426.427 .
51. يراجع البستان : 170 / يراجع « نيل الابتهاج » : 436 .
52. هذه الآراء والأقوال استُقيت من المطابّ الآتية : نيل الابتهاج : 345 / البستان : 170 / تاريخ الجزائر العام 2 : 211 .
53. نيل الابتهاج : 345 .
54. البستان : 170 .
55. م . ن . ص 170 .
56. م . ن . ص 170 .
57. البستان : 170 .
58. يراجع م . ن . : 174 .
59. يراجع م . ن . ص 174 .
60. م . ن . ص 177 .

61. قامت بطبعه وزارة الشؤون الدينية في الجزائر - منشورات المركز الثقافي الإسلامي - الجزائر . سلسلة : المطبوعات الجميلة (Les belles Impressions) . يقع في 132 ص (من الحجم الصغير) ، وهذا الكتاب يحتاج إلى محقق يكون على دراية بالعلوم النقلية والعقلية كي يرتقي إلى مستواه، وكي ينزل كثيرا من الالتباسات الفكرية والدينية واللغوية التي تحتويها دفاته.
62. هو الوارد ترجمته في رقم : 7 (من هذا البحث) .
63. يراجع البستان ، ص 264 .
64. يراجع : م . ن . ص 264 / معجم أعلام الجزائر : 172 .
65. يراجع : نيل الابتهاج ، ص 498 .
66. يراجع : م . ن . ص 498 .
67. يراجع « معجم أعلام الجزائر » ، ص 17 .
68. يراجع البستان : 44 .
69. ذكر هذا النسب وعدّد شيوخه ابن مريم في البستان، ص 201 .
70. يراجع : تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي 2 : 213 .
71. يراجع : البستان ، ص 208 .
72. ذكر هذه المؤلفات تلميذه الشيخ السخاوي، وأوردها من غير تصنيف، فنقلها ابن مريم في « البستان » : 210 . 211 كما هي عند السخاوي (وهذا الترتيب والتصنيف تبعاً لكل تخصص إنما كان من صنعنا) .
73. تاريخ الجزائر العام 2 : 215 .
74. البستان ، ص ص 201 . 202 .
75. البستان ، ص ص 205 . 206 .
76. م . ن . ص 206 . 207 .
77. م . ن . ص 207 .
78. م . ن . ص 207 .
79. م . ن . ص 207 . 208 .
80. البستان ، ص 38 .
81. نفسه ، ص 41 / التنبكي : م . س . ص ص 119 . 120 .
82. نفسه : 38 . 39 .
83. هو سعيد بن محمد بن محمد التيجي العقباي التلمساني الفقيه، كلن إمام تلمسان وعلاقتها. ولي قضاء بجاية في عهد السلطان أبي عنان، كما ولي قضاء تلمسان، ومراكش، ووهران، وسلا ... له « شرح البردة » ، و « جمل الخونجي » . يراجع : معجم أعلام الجزائر لعادل نويهيض : 75 . 76 .
84. هو أحمد بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباي، فقيه من القضاة من أهل تلمسان. أخذ عن والده قاسم وغيره . ولي قضاء تلمسان، وبها توفّي .
- يُراجع : معجم أعلام الجزائر : 13 .
85. هو إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباي التلمساني: فقيه، حافظ، من القضاة . له فتاوى نُقل بعضها المازوني في كتابه « الدُرر المكنونة » ، وبعضها الآخر نقلها الونشريسي في كتابه « المغيار » . معجم أعلام الجزائر : 13 .
86. هو محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد الفقيه ، وله مشاركة في الأدب . وُلد بتلمسان ونشأ بها، وولي قضاء الجماعة . له « حفظ الشعائر الدينية » . معجم أعلام الجزائر : 144 .
87. يراجع البستان : 147 .
88. م . ن . ص 148 .
89. عن : نيل الابتهاج ، ص 365 .
90. عنه نفسه ، ص 365 .
91. عن البستان : 148 .
92. البستان : 236 .

- 93 . نفسه : 236 .
- 94 . أعلام الجزائر : 144 .
- 95 . نيل الابتهاج : 606 .
- 96 . البستان : 39 .
- 97 . م . ن . ص 39 / وقد سبق إيراد هذه الحكاية مع العلامة ابن زاغو، فلنراجع في مكانها من هذا البحث .
- 98 . يراجع : م . ن . ص 41 .
- 99 . يُراجع : م . ن . ص 41 .
- 100 . نفع الطّيب : المُقرّي ج 6 ص 175 / نظم الدّرّ والعقيان (الكتاب كلّه) .
- 101 . أثبت هؤلاء الشيوخُ التّبكي في كتابه « نيل الابتهاج » ، ص 573 .
- 102 . يراجع : نيل الابتهاج ، ص 573 .
- 103 . حقّقه : بوطالب محيي الدّين تحت عنوان « الجانب الأدبي من مخطوطة الحافظ التّنسي التلمساني » . منشورات دحلب . الجزائر ، د . ط / د .
- ت .
- 104 . يراجع كتاب << نظم الدّرّ والعقيان >> . تحقيق : محيي الدّين بوطالب (من ص 55 إلى ص 286) .
- 105 . نفع الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب . تحقيق : الدكتور إحسان عباس ، دار صادر بيروت . د . ط / 1408 هـ (1983م) 6 : 195 .
- 106 . أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض : أحمد المُقرّي (3.1) تحقيق : السّقا . الأبياري . شلبي ، ط . القاهرة 1939م . 1942م . 1 : 250 .
- .
- 107 . ديوان أبي تمام (4.1) تحقيق : محمد عبده عزّام . دار المعارف بمصر 1951 . 1965 م . 6 : 201 .
- 108 . نفع الطّيب 6 : 201 . هذا، ولا بدّ من التّوضيح، بأنّ الأمر لا يعنينا كثيرا فيما يتعلّق بأرائه النّقديّة، لأنّ الموضوع هنا لا يروم الابتعاد كثيرا عن الهدف منه، وهو التعريف بالمدرّسين لا الأدباء أو النّقاد، ولذلك نختزئ بهذه اللّحمة؛ محيلين على الكتب التي تعرّضت لهذا الموضوع . يراجع مثلاً « نظم الدّرّ والعقيان » بتحقيق محيي الدّين بوطالب من ص 287 إلى 312 .
- 109 . نظم الدّرّ والعقيان . تحقيق : محمود بوعياض ، ص 20 .
- 110 . نيل الابتهاج : 573 .
- 111 . نظم الدّرّ والعقيان . تحقيق : محمود بوعياض ، ص 20 .
- 112 . ذُكرت هذه المؤلّفات في المظانّ التي عُنّيت بحياة وسيرة التّنسي .
- 113 . البستان : 8 .
- 114 . م . ن . ص 17 .
- 115 . يراجع : م . ن . ص 24 .
- 116 . البستان : 18 .
- 117 . يراجع : م . ن . ص 18 .
- 118 . تنظر هذه القصيدة في البستان : 20 . 22 .
- 119 . البستان : 14 . 15 .
- 120 . سورة النّساء . جزء من الآية 97 .
- 121 . تضمين للآية 99 من سورة النّساء .
- 122 . سورة النّساء . جزء من الآية 75 .
- 123 . البستان : 15 . 16 .